إلى الأخ العزيز
الدكتور / عمرو الشوبكي
مع تقديري ومودتي)
عبد الله شلبي

التدين الشعبى لفقراء الحضر فى مصر

آليات المصالحة والقبول والرضا والتحايل

دكتــور
عـبدالله شــلبى

طبعة أولى
٢٠٠٨



عنوان الكتاب: التدين الشعبى لفقراء الحضر
اسم المؤلف : د. عبد الله شلبى
الناشــر : مركــز المحروســة للنشــر والخــدمات الصــحفية والمعلومات
قطعة رقم ٧٣٩٩ ش٢٨ من ش ٩ – المقطم – القاهرة
ت ، ف : ٥٠٧٥٩١٧
e.mail : mahrosa@ hotmail.com
المدير العام : فريد زهران
الغلاف والإشراف الفنى للفنان : مجاهد العزب
المراجع اللغوى : محمد عامر فاضل
رقم الإيداع : ٢٠٠٧/٢٥٩٢٤
الترقيم الدولى : 977-313-210-2

الطبعة الأولى ٢٠٠٨م

إهداء

الى أهلنا الفقراء الغلابة في مصر المحروسة ...

وإلى فقيد الوطن والحركة الوطنية المصرية :

الدكتور أحمد عبدالله رزة

ابن أهالى ، حى عين الصيرة الفقراء الغلابة ... ، والذى جسد أحلامهم فى إمكانية الانعتاق التاريخى من أسر التخلف و قبضة الفقر ... ، والذى كان حضوره ، كما كان رحيله ، مثالا للاحتجاج النبيل والتمرد الجسور من أجل وطن حر يمتلك إرادته ، ويحترم حقوق الإنسان ، ويحقق الكفاية والعدل لكل المصريين ...

دكتور / عبدالله شلبي
المقطم سبتمبر ٢٠٠٦

قُسمت أرض مصر إلى أربع وعشرين حصة ، أربع منها للسلطان ، وعشر للأمراء وعشر للجند ، وعندما تساءل أحدهم أين نصيب الشعب ؟ قيل له للشعب الحصة الخامسة والعشرون ومكانها مملكة السماء ......

حسين فوزى:
سندباد مصرى

يا غلبان بلدنا يا فلاح يا صانع ...

يا شحم السواقى يا فحم المصانع ...

يا منتج يا مبهر يا آخر حلاوة ...

شوف أنت شغلك بهمة وحماسة ...

وماليكش دعوة بشغل السياسة...

ورزقى ورزقك ورزق الكلاب ...

ده موضوع مؤجل ليوم الحساب ...

الفاجومي:يعيش
أهل بلدى

يأبانا . . . يأبا أيتامه ملّوا الصلاة . .

لن نصلى لك كى تمطر قمحا . .

لن نداوى بالحجابات وبالرقية جرحا . . .

نحن خلقنا من أمانينا التى تكبر ربا . . .

شق لنا فى مأساتنا دربا .

"سميح القاسم "
الشاعر الفلسطينى الكبير

المحتويات



المقدمة

تكشف النظرة التاريخية البنائية لحقل الأديان في المجتمع المصرى عن عمق التدين المصرى ، وعن رسوخ الجذور الدينية فى البنيات النفسية والإدراكية الفردية والجماعية للمصريين فى عمومهم وأيًا كانت دياناتهم وأنتمائاتهم المذهبية . وعلى الرغم من كون الدين يملأ أفاق الفضاء الاجتماعى المصرى بكليته وشموله وموجود فى كل شقوق ومآرب الحياة اليومية للمصريين جميعهم ويتبدى حضوره جلياً واضحًا فى بنية ثقافتهم و فى نشاطتهم ويوجه ويراقب تأملاتهم وأفعالهم كافة ويشكل نظرتهم لأنفسهم وللآخريين ورؤيتهم لعلاقتهم بذواتهم وبالآخر ورؤيتهم للعالم وينعكس على مجمل إنتاجهم السياسى والاجتماعى والثقافى — إلا أنه وبرغم هذا الحضور الطاغى يظل أقل الموضوعات التى يقر بها البحث السوسيولوجى الرصين والعميق خاصة داخل المؤسسات الأكاديمية والبحثية المصرية ، إلى الحد الذى قد يدفع إلى القول بأن الظاهرة الدينية فى مصر بكل تجسيداتها المؤسسية والحركية وتفاعلاتها وكل قضاياها تكاد تكون شبه غائبة عن الدراسة والبحث العلمى وآية هذا الغياب والعزوف عن تناول ومعالجة الظاهرة الدينية بكل مستويات وأشكال وجودها هى قلة إن لم تكن ندرة المنتج البحثى السوسيولوجى فى هذا المجال(*).

وفى تقديرى أن هذا الغياب والعزوف مـــردود إلـــى عدة أسباب ، يأتى فى مقدمتها كون المجتمع المصـــرى شأن غيره من المجتمعات العربية الأخرى ما يزال يحيط الكثير من قضاياه الجوهرية والمصـــيرية بســـياج مـــن الممنوعات والمحرمات ، خاصة تلك المرتبطة بالـــدين والسياسة والجنس ، بل إن المصريين يصـــيرون أشـــد حساسية تجاه الدين نظرًا لكونه يمثل لديهم بؤرة كل القيم الحاكمة والضابطة والموجهة حتى فى سياقات السياســـة والجنس بل والحياة العامة بكليتها وشمولها كما ذكـــرت قبلا وثمة سبب آخر يرتبط بالعلم الاجتماعى المصـــرى ذاته وهو أن هذا العلم ظل ولسنوات طـــوال راضـــيًا أو مكرهًا قانعًا بهذه الوضعية ومـــؤثرًا ســـلامة العـــزوف والابتعاد على تكلفة الجرأة والجسارة والإقدام وتبعـــات الالتزام الوطنى والاجتماعى ، وأن كانت السوسيولوجيا المصرية لم تعدم عبر تاريخها الحديث والمعاصر مـــن محاولات التمرد والفكاك التى سعت بجسارة إلى تجاوز هذه الوضعية لتوسع نطاقات العلم الاجتمـــاعى وتؤكـــد حيويته والتزامه وارتباطه بالمجتمع المصـــرى وبحـــث قضاياه وهمومه على تنوعها وتباينها .

ويلاحظ المتابع للمنتج البحثى الاجتماعى المصرى فى مجال سوسيولوجيا الدين وعلى امتداد العقود الثلاثـــة الأخيرة من القرن العشرين المنصـــرم ومطلـــع الألفيـــة الميلادية الثالثة ، أن هذا المنتج وبرغم محدوديته قد تركز حول بحث ظواهر الإحياء الأصـــولى الإســـلامى فـــى

عمومياتها وتنوعها وبحث أسبابها ومصادرها وديناميأتهـــا ، وجماعاتها خاصة الجانب النشط من هذه الظـــاهرة وأعنـــى الإسلام السياسى وما ارتبط به من وقائع ، عنف ولقد مثـــل هذا الاقتراب والتناول نوعًا من الاختزال والتجاهـــل أحيانـــا لظاهرة كلية تتسم بالتنوع والثراء والتعقيد البالغ . واســـتقراء المنتج البحثى فى مجال سوسيولوجيا الدين شاهد علـــى هـــذا الاختزال والتجاهل .

فعلى الرغم من وجود كم مـــن البحـــوث المهمـــة والجادة حول التدين المعارض وما يحويه مـــن حركـــات وجماعات سياسية إسلامية ، فثمة افتقاد لبحـــوث شـــاملة لأنماط السلوك الدينى لفئات اجتماعية محددة فى البنـــاء الاجتماعى المصرى من المؤمنين بالإسلام كدين وعقيدة وشريعة ، وندرة فى بحوث الفولكلور الذى تخلق تاريخيًا حول الاعتقادات الشعبية المرتبطة بالـــدين وطقوســـه ، وممارساته ، هذا فضلا عن ندرة المنتج البحثـــى بشـــأن التدين الرسمى المؤسسى أو دين الدولة وكـــذلك التـــدين الشعبى بكل مستويات وجوده (**)

ويكاد يكون التدين الشعبى بكل مـــا يحويـــه مـــن اعتقادات وإيمانات وفولكلور وطقـــوس تتـــداخل فيهـــا الشعبيات والممارسات التاريخية مع خبرات الحياة اليومية مع تعاليم كبار السن وحكمة الشيوخ ومع الأمثال الشعبية فى مزج فريد ، أقول لا تزال هذه المكونات بعيدة عـــن الرصد والتأويل السوسيولوجى حتـــى فلكلورياتـــه بـــلا أنثروبولوجية رصينة إذ وقف الكثير منها عنـــد حـــدود

الرصد والجمع ، ولم تتجاوزه إلى التحليل والتدقيق والتأويل لما تم جمعه ، فى هذا المستوى من مستويات الاعتقاد الدينى الشعبى والذى يعد فى تقديرى مكونًا مهمًا من مكونات الظاهرة الدينية فى المجتمع المصرى . إلا أنه وعلى الرغم من ذلك ظل مجالا شبه مجهول لم يقربه البحث السوسيولوجى إلا بحذر شديد وعلى نحو محدود للغاية والى الحد الذى يدفع إلى القول بأننا بصدد ظاهرة لم تدرس بعد بشكل واف . وعلى الرغم من البحوث القليلة والمحدودة التى سعت إلى فهم الأطر التنظيمية للتدين الشعبى ، وفهم الكيفيات التى تستجيب من خلالها الذهنية الشعبية للدين[1] ، إلا أن التوجه الذى كانت له الغلبة هو إحجام الباحثين عن تناول هذا النمط من التدين والذى يتسم بالتنوع والثراء على صعيدى بنيته الأيديولوجية وسياقاته وأطره التنظيمية . وهذا الإحجام مردود — فى تقديرى — إلى موقف الرفض والتأفف الذى قد يصل أحيانًا إلى درجة العداء للذهنية الشعبية ؛ بزعم استغراقها فى البدع والخرافة ، وإما بفعل شيوع رؤى ظالمة للتدين ، الشعبى ، تقرر استغراقه فى المحافظة والتواكلية والقدرية والأسطورية ، إلى حد اعتباره الأساس الذى تعتمد عليه السلطة السياسة فى تأكيد وإعادة إنتاج مصداقيتها ومشروعيتها . وتأسيسًا على الطرح السالف يسعى البحث الراهن إلى تجاوز هذه الوضيعة الراهنة إذ يهدف إلى رصد وتأويل التجليات الشعبية الدينية ، عند تقاطعها وتماسها مع الممارسات الاجتماعية

لعينة من فقراء الحضر ، فى واحدة من المدن المصرية .
ولقد اختار الباحث مجالا واحدًا بعينه داخل هذه الظاهرة التى تتسم كما ذكرت قبلا بالتنوع والثراء ، وهذا المجال هو معالم وأبعاد ومحتوى الذهنية ، والممارسة الاجتماعية والشعبية لفقراء الحضر عند تقاطعها وتماسها مع دينهم ٠

وبتحديد أكثر يعنى البحث برصد وتأويل رؤية الفقراء لواقعهم الاجتماعى ، وما ينطوى عليه من فقر وطبقية وتمايز اقتصادى واجتماعى ورؤيتهم للسلطة السياسية والدولة والحكم ، وفهمهم الخاص لهذه السلطة وممارستهم إزءهما ، وفى تقاطع هذه الرؤى والفهم والممارسات مع تدينهم الشعبى ، والكيفيات التى يتم من خلالها تفعيل هذا التدين على صعيدي الوعى والممارسة فى الحياة اليومية لهم ، كآليات تدفعهم لقبول هذا الواقع والرضا به ، والي بناء الأنساق المعيارية التى تحقق هذا القبول وتصالحهم معه ، ومن ثم تكريسه وإعادة إنتاجه ، وكيف تدفعهم هذه الرؤى وهذا الفهم وهذه الأنساق المعيارية ، فى ظل تعاظم القهر والاستبداد السياسى ، إلى التحايل والخداع إيثارًا للسلامة ودرءًا لتبعات التمرد أو الثورة من أجل تغيير واقع حياتهم إنها محاولة لاستكشاف جانب مهم من قصة الوطن بكل تفاصيله وكل همومه ، نقرأ من خلاله الحياة اليومية للفقراء من أهل مصر ، وآمالهم المتكسرة وأحلامهم الموعودة ، كما أنه فى الوقت ذاته محاولة للكشف عن مواضع الخلل فى البنية الاجتماعية للوطن ، ومنابع الألم الموزع على الفقراء

والمهمشين من أهل مصر ، والـــذين لا يـــذكرهم احـــد ويسقطهم التاريخ الرسمى المدون من ذاكرته ، عبر لعبة دنيئة لحساب سادة مصر ، الذين أغلقت دونهـــم دوائـــر السلطة والثروة وحتى دوائر الفساد .

إن تركيز الاهتمام البحثى هنا سيكون على التـــدين الشعبى ، كتقليد وكمكون أساسى من مكونـــات الـــوعى والذهنية ، لدى عينة من فقراء الحضر فى مصر .وعليه فالبحث لا ينصرف إلى دراســـة الأداء الـــدينى الشـــعبى للشعائر والعبادات والطقوس الدينية ، برغم أهميـــة هـــذا البحث ، إلا بقدر ارتبـــاط هـــذا الأداء الـــدينى الشـــعبى بموضوع البحث الأساسى ، كما أن البحث لن ينصـــرف إلى دراسة التدين كأيديولوجيا وكمشروع اجتماعى سياسى على ، نحو ما هو حـــادث لـــدى الجماعـــات السياســـية الإسلامية ، التى سعت إلى أدلجة الإسلام ، ومن ثم فنحن نستبعد عملية أدلجة الدين هذه التـــى قامـــت بهـــا هـــذه الجماعات ، وسيكون محور الاهتمام البحثى هو التـــدين الشعبى ، كواقعة وظاهرة تاريخية بنائيـــة ، و كتقليـــد و كمكون من مكونات الوعي الاجتماعى ، وكواقع معـــاش لدى عينة من الأغلبية الفقيرة فى حضر مصر. وبالنظر لما تقدم بشأن الأهمية الخاصة لموضوع البحث وموقـــف الأدبيات السابقة فى مجال سوسيولوجيا الدين ، بـــالنظر إلى الأهداف التى يسعى البحث لبلوغها ، يحاول البحـــث الراهن أن يقدم إجابات عن التساؤلات التالية :.

١– ما الملامح السياسية للتصورات الشعبية حول الفقر والتفاوت الاقتصادى الاجتماعى والسلطة السياسية وعلى نحو ما تتجلى فى الرؤى الدينية والأمثال الشعبية التى تشكل جانبًا مهمًا من الوعى الاجتماعى لفقراء الحضر فى مصر ؟

٢– إلى أى حد يمكن تبين ملامح هذا النمط من التدين على صعيدى البنية الذهنية والممارسة الاجتماعية أو على مستوى العقيدة الدينية والسلوك الحياتى اليومى لفقراء الحضر خاصة فيما يتعلق بإدراكهم لظروفهم المادية الموضوعية وموقفهم منها ؟

٣– كيف يقوم هذا التدين الشعبى كآلية لقبول هذه الظروف ، والانسجام معها وتحقيق الاستقرار والأمن الذاتى والرضا بالواقع ، ومواجهة الإحساس بالضآلة والتهميش ، والعجز الاقتصادى والاجتماعى والسياسى ؟

٤– كيف يشكل التدين الشعبى أداة متاحة للفقراء تعينهم على التغلب على مشكلاتهم وحمياتهم من نوائب الدهر ؟

٥– على أى نحو يدرك الفقراء ظلم السلطة واستبدادها وبطشها ؟ وكيف يتم تبرير هذا الظلم والاستبداد والبطش دينيًا ؟ وما آليات التحايل والخداع التى يلجأون إليها درءاً لبطش السلطة وطغيانها ؟

٦– هل ينطوى التدين الشعبى لفقراء الحضر — على مستوى بنيته الذهنية وأطره التنظيمية — على أى

إمكانات لتحول الفقراء وانخراطهم فى عمل سياسى باسم الدين ضد الدولة ، وتحركهم فى اتجاه المعارضة السياسية الإسلامية ، المقاومة لسياسات الدولة ، والتى تعمل بدأب لقلب النظام ، وحيازة سلطة الدولة وتشغيل مشروعها المجتمعى ؟

نحن معنيون إذن بالممارسات الاجتماعية الشعبية ، لدى فقراء الحضر المصريين ، عند تقاطع هذه الممارسات وتماسها مع دينهم ، وأتصور أن هذا السعى من شأنه أن يكشف لنا عن جانب مهم من ماهية التدين الشعبى ومحتواه ، لدى هذه القطاعات الشعبية العريضة . وعليه فمهمة البحث ستكون استقصاء تجليات وتمظهرات الدين فى الممارسات الاجتماعية التلقائية لفقراء الحضر . وكما ذكرت قبلا فإن البحث سيقتصر على مجال واحد بعينه ، لرصد معالم وأبعاد ومحتوى الذهنية والممارسة الاجتماعية الشعبية لدى عينة من فقراء الحضر ، فى واحدة من المدن المصرية ، عند تقاطع وتماس هذه الذهنية وتلك الممارسة مع تدينهم . وهذا المجال هو رؤية هؤلاء الفقراء وفهمهم لواقعهم الاجتماعى وما يحفل به من فقر وطبقية وتمايز وتهميش ، يمتد ليشمل مستويات وجودهم كافة ، وكذلك رؤيتهم وفهمهم للسلطة السياسية الحاكمة ، وموقفهم منها ، وفى تقاطع كل ذلك مع تدينهم وعلى نحو ما يتجلى ويظهر فى رؤيتهم الدينية ، وما

يحملونه من أمثال شعبية ، ومـا يقـدمون عليـه مـن ممارسات عبر مواقف حياتهم اليومية .

واعتمد البحث لتحقيق مساعيه وإنجاز أهدافه ، على الجمع بين أساليب التحليل الكمى والكيفى معًـا . فعبـر التحليل الكمى حاول البحث الكشف عن حجم التـأثيرات التى لحقت بالفقراء ، وشملت كل مسـتويات وجـودهم ومعاشهم ، من جراء التحولات الاقتصادية والاجتماعيـة والسياسية التى خبرها المجتمع المصرى ، وعلى وجـه الخصوص منذ مطلع العقد الأخير منذ القـرن العشـرين المنصرم وبداية القرن العشرين المنصرم وبداية القـرن الحالى . أما التحليل الكيفى لخطاب التدين الشعبى حـول الفقر والطبقية والسلطة السياسية ، فكان مسـلك البحـث ليخبر صورة الواقع الاجتماعى المعاش ، لـدى الفقـراء وبكل ما يحفل به ، ورؤيتهم وطبيعة فهمهـم وتـأويلهم لواقع ، مجتمعهم ، وما طرأ عليهم من تحـولات عنـد تماس هذه الرؤى والفهم والتأويل مع تدينهم الشخصـى ، وما يترتب على ذلك كله من مواقف وممارسات ، تكشف عما تحويه ذهنياتهم من تصورات وأفكار ومعارف دينية اجتماعية اقتصادية وسياسية ، تعكس بشـكل أو بـآخر وجودهم الاجتماعى . وقد استخدم البحث فقـرات مـن إجابات المبحوثين فى توضيح قضاياه والتدليل على مـا انتهى إليه من استخلاصات . ولقد قام الباحـث بإعـداد استمارة مقابلة متعمقة ، احتوت على ٦٧ سؤالاً توزعت على ثلاثة بنود أساسية ، الأول يتعلق بمحددات الوجـود

الفردى والاجتماعى ، والثانى خاص بالتصورات والرؤى الشعبية الدينيــة للفقــر والطبقيــة والتفــاوت والتمــايز الاقتصادى الاجتماعى ومصادره وأسبابه والموقف منه ، أما البند الثالث من استمارة المقابلة فقد خصص للكشــف عن الرؤى الشعبية الدينية للحــاكم والســلطة السياســية وماهيتها والمواقف العملية المتناقضة والمترتبة على هذه الرؤى. هذا وقد خضــعت أداة البحــث قبــل تطبيقهــا للإجراءات المنهجية التى تضــمن صــحتها وســلامتها وصلاحيتها لما صممت من أجلــه ، هــذا فضــلاً عــن عرضها على جمع من المتخصصين وذوى الخبرة للقيام بتحكيمها .

ولكى يتمكن البحث من الإجابة عن تساؤلاته عمــد إلى استبار عينة عرضية مقصودة ، قوامها ٨٧ مفردة من بين الفئات والشرائح الفقيرة المعبرة إلى حد كبيــر عــن خصائص وسمات الطبقات الدنيا والفقيرة بكل تنوعاتهــا فى المجتمع المصرى ، وهذه الفئات والشــرائح الفقيــرة تشكل غالبية سكان حى درب الطباخين بمدينة الفيــوم ، وهذا العدد فرضته ظروف إجراءات البحث الميدانى . أما اختيار المجال الجغرافى فى البحــث فمــردود إلــى أن الباحث من أبناء هذا الحى ويعرف أهله جيــدًا معرفــة تاريخية وشخصية . كان يراهم على امتداد سنوات عمره مكافحين صامدين فى معركة الحياة ، يصنعون حيــاتهم ويعيدون إنتاجها . ويزعم الباحث أنه يفهم ، وإلــى حــد كبير ، ما يخبره أهله وجيرانه فى نضالهم وعبر مســيرة

حياتهم اليومية داخل مجتمعهم ، وأتصور أن فهم الذهنية الشعبية الدينية لدى الفقراء ، تقتضى الاقتـــراب مـــنهم ، والاقتـــراب بـــدوره يقتضـــى الانخـــراط والمعايشـــة والمشاركة ؛ حتى يتمكن الباحث من أن يقـــدم وصفـــًا وتأويلا للظاهرة موضوع البحث ، يتسم بالدقة والتحديـــد والموضوعية قدر الإمكان .

ويزعم الباحث ثانية أنه ما انفصل يومًا قـــط عـــن واقع أهله وهمومهم وقضاياهم المصيرية ؛ سعيًا إلى فهم هذا الواقع ونقده معًا وأملاً فى إنتاج معرفة اجتماعية قـــد تسهم فى دعم مسيرتهم فى مسعاهم المنشود مـــن أجـــل العدل والحرية . ولقد سهل انتماء الباحـــث لهـــذا الحـــى الحصول على جانب من عينة البحث ، وفـــق المعرفـــة الخاصة والقوية ، والتى عن طريقها تم الحصول علـــى الجانب الأعظم من عينة البحث . هذا وقـــد تـــم تطبيـــق استمارة المقابلة خلال الأيام الأخيرة من شهر يونيه وعلى امتداد شهر يوليو بكامله من عام ٢٠٠٢ م .

وتشكل محافظة الفيوم المجال الجغرافـــى الرحـــب للبحث وهى تقع إلي الجنوب الغربى من القاهرة وتنقســـم إلى خمسة مراكز إدارية تضم خمس مدن ، مـــن بينهـــا مدينة الفيوم العاصمة والتى يقع حـــى درب الطبـــاخين ، الذى يشكل المجال الجغرافى المباشر والمحدود للبحـــث إلى الشمال الغربى منها[٢] . وتكشـــف مراجعـــة نتـــائج التقديرات السنوية للسكان فى محافظة الفيـــوم ، عـــن أن إجمالى عدد سكانها قد وصل فى نهاية عام ٢٠٠٢ إلى ما

يقرب من ٣,٥ مليون نسمة ، بمعدل زيادة سنوية يقــدر بحوالى ٢,٥٤ % عن تعداد عام ١٩٩٦ ، حيــث كــان ٣,٣٤ مليون نسمة ، الأمر الذى يشير إلى تزايد الكثافــة السكانية فى هذه المحافظة[٣].

وعلى الرغم من الكثافة السكانية الآخذة فى التزايد على امتداد العقود الأربعة الماضية ، كما تشير إلى ذلــك نتــائج التعــدادات المتعاقبــة ، إلا أن الفيــوم بريفهــا وحضرها ، قد اتسمت بندرة المصادر التنموية ، وببطء معدلات التنمية وتدنيها أحيانــًا كثيرة. وانعكس ذلك على سوء الأوضاع المعيشية للغالبية من سكانها ، وتضعضع أحوالهم الصحية ، وانخفاض مســتوياتهم الاجتماعيــة ، وارتفاع معدلات البطالــة بيــنهم ، ومعــدلات الهجــرة الخارجية إلى مدينة القاهرة ، والى خارج الوطن بكاملــه .ومحصلة كل ذلك أن الفيوم صارت تصنف على أنها من المحافظات الفقيرة على مستوى الجمهورية ، كما يشــير تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٣ ، إلى أن محافظة الفيوم تنتمى إلى أفقر مناطق العالم الثالث ، وآيات هــذا الفقــر نلمسها فى تدنى إشباع الحاجات الماديــة والاجتماعيــة الأساسية للسكان ، وبما يحمله ذلك من تــدهور نوعيــة الحياة للجماعات الفقيرة ، والتى تشكل القطاع الأعظم من السكان ، كالحاجة إلى الإسكان والعمل والتعليم والغــذاء الملائم ومياه الشرب النقية والصرف الصحى والعلاج ، وغيرها من الحاجات الأساسية لحياة الناس[٤] .

أما حى درب الطباخين فى مدينة الفيوم ، والـــذى يمثل المجال الجغرافى المباشر للبحـــث ، فإنـــه يتميـــز بخصوصيات قد تنسحب على كثير من الأحياء الشـــعبية القديمة والفقيرة فى المدن المصرية ، ويعد واحـــدًا مـــن الأحياء التى تشهد تركزاً عاليًا للفقراء على مستوى مدينة الفيوم .والحى منطقه فقرية بكل ما تحملـــه الكلمـــة مـــن معانى ، ويمكن أن ينوب عن كثير من الأحياء المماثلـــة فى حضر البلدان المتخلفة .. ، إذ يضم بين جنباته حزمة متضافرة من العوامل القاهرة ، التى تشكل فى مجموعها مصيدة فقر محكمة فى الأوساط الحضـــرية المصـــرية . واعتمادًا على الملاحظات الشخصية والتاريخية للباحث ، كان رصد ملامح وأوضاع الفقر فى هذا الحى ، والتـــى تشكل الشروط والظروف الحياتية التى يعيش ويعمل فى سياقها الناس ، وهذا الرصد ضرورى لأنه يشكل الأساس الاجتماعى المادى والموضوعى ، لتشكل وعـــى هـــؤلاء الناس وطبيعة تدينهم الشخصى(*).

ويمثل حى درب الطباخين تجمعًا حضريًا ريفيًـــا ، وتبدو الملامح الريفية واضحة تمامًا عند أطرافه الغربية ، حيث تتداخل المزارع الخضراء مع العمران الحضرى ، إلى الحد الذى تختفى معه سمات الحضـــرية أو تكـــاد . وشوارع الحى فى مجملها تتسم بالضيق النسبى ، وغيـــر مرصوفة ماعدا الشارع الرئيسى ، الذى يمر بطول الحى ويقسمه إلى قسمين ، أحدهما داخلى والآخر يطل علـــى ترعه بحر يوسف ، ويتحول معظم هذه الشـــوارع فـــى

فصل الشتاء ومع هطول الأمطار وصعوبة تصـــريفها ، إلى برك من الماء الراكد والطين التى تعوق حركة انتقال الأهالى . والأراضى التى تتوسط الكتلــة الســكنية فـــى مواضع عده داخل الحى ، ورغم محدوديتها ، تتحول إلى أماكن لتجميع القمامة ومخـــازن للفضـــلات . ومرتعًـــا للحشرات الضار ة . ولم يعرف الحى الصرف الصـــحى إلا مؤخرًا ، أما مياه الشرب النقية فعلـــى الـــرغم مـــن وجودها ، إلا أن الكثير من منازل الحـــى تعتمـــد علـــى مواتير وطلمبات لسحب وضخ الميـــاه بســـبب ضـــعف تدفقها• والمنازل فى عمومها ومن مظهرها الخــارجى ، لا توحى بأى مظهر للترف ، وبعضها لا يتــوافر فيهـــا الخدمات الأساسية سوى الكهرباء خاصة عنــد أطـــراف الحى • وهناك عدد من المنـــازل الخاصـــة ، وبضـــغط الازدحام ، اضطر أصحابها إلى بناء غـــرف إضـــافية ، على أسطح المنازل القديمة ، وهى فى معظمها تكاد تخلو من أية شروط صحية . وفى كثير من الحارات والأزقـــة داخل الحى تلمس التدهور السكنى لكثير مـــن المنـــازل القديمة ، وحيث يعيش الناس فيها جنبًا إلى جنـــب مـــع الحيوانات التى يقومون بتربيتها • ولا يتجـــاوز طمـــوح الكثير من أهالى الحى . قدر توفير الحد الأدنـــى مـــن الغذاء البسيط اليومى لأبنائهم ، وهى وضعية تجسد حالة العوز الشديد والبؤس ، لجانب كبير من الأســـر الفقيـــرة التى ارتأى أربابها ، وكجزء من إستراتيجياتهم لضـــمان وكفالة الأمن الاقتصادى ، أن ينجبوا الكثير من الأطفال ،

إلى حد أن أصبحوا يعولون أسرًا كبيرة العـــدد ، وفـــى الوقت ذاته لا يتوافر لها سوى دخل بســـيط ومحـــدود لا يتسم بالديمومة والاستمرارية أحيانـــًا ، وحياة الأطفال فى الحى تعتبر معيارًا للآثار الوحشية والقاسية للفقر . وتلمح هذه الآثار فى الأسمال البالية على أجسامهم الشاحبة مـــن سوء التغذية . والكثير من أطفال هـــذه الأســـر يتســـرب معظمهم من التعليم ، ويتم الدفع بهم مبكرًا إلـــى ســـوق العمل الحرفى والأعمال اليدوية . أما أرباب الأسر داخل الحى فيتوزعون مابين فلاحين يمتلكون مساحات زراعية قزمية يفلحونها بأنفسهم ، وهى تشكل ظهيرًا زراعيًا للحى عند أطرافه الغربية ، وفلاحين بلا أرض يعملون كأجراء زراعيين فى مناطق أخرى ، وعمال خـــدمات وعمـــال صناعة محدودين للغاية وموظفين حكوميين فى وظـــائف صغيرة من المستوى الأدنى وأماكن عمل هـــؤلاء تقـــع خارج الحى الذى يخلو تماما من أية مؤسسات اقتصـــادية إنتاجية أو خدمية حديثة . كما يعمل عدد مـــن أربـــاب الأسر فى عدد من المناشط الحرفية المتنوعة فـــى ورش صغيرة ، بعضها ملحق بالمنازل داخل الحى ، والـــبعض الآخر يعمل فى الأعمال اليدوية المرتبطة بقطاع التشـــييد والبناء . وتجدر الإشارة هنا إلى ارتفاع معدل البطالة بين أبناء الحى من بين خريجى المدارس الثانوية الفنية والعدد المحدود من خريجى الجامعات .

وبالرغم من الفقر والتدهور الملحوظ الـــذى امتـــد ليشمل الوجود الفيزيقى الحياتى للناس ، تلمس حالة مـــن

الاستسلام والإذعان لهذه الوضعية والرضا بها وقبولها ، إلى حد انعدام أية بارقة أمل للاحتجاج والمقاومة ، وعلى ما يبدو أن قسوة الفقر وشدته قد داست فى غلظة كل أمل للانفلات من قبضته القاسية ، حتى ولو كانت بسبل غير مشروع ، فهذه السبل لم تعد حتى متاحة للغالبية التى ارتضت الاستسلام بعد أن طحن الفقر إرادتها وقهرها تمامًا ، إلا أنها أبت فى الوقت ذاته وبرغم قسوة الفقر وشدته ألا تمارس حياتها دون التزام بمنظومة قيم تقيم حدودًا للحلال والحرام ، تضبط سلوكياتهم فى حياتهم اليومية وتخلق لديهم شعورًا بالرضا والقناعة والطمأنينة يجعلهم لا يتطلعون كثيرًا إلى أعلى ، ويستمدون هذا الرضا عن أنفسهم وحياتهم من أشياء وأمور أخرى ليس من بينها تحقيق أى صعود لأعلى فى درجات الهرم الاجتماعى .

الفصل الأول

التدين الشعبى

ماهيته وملامحه ومحتواه

التدين سلوك طبيعي وإنساني يشكل جانبًا مهمًا من الروابط الاجتماعية بين البشر • ويعد في مجمله وبكل أنماطه المتباينة ظاهرة تاريخية اجتماعية تعبر في جوهرها عن التجلي العملي والنسبي لعلاقة الإنسان الوجدانية والروحية بالله وبعالم الغيب ، وتشكل هذه العلاقة مكونًا مهمًا من مكونات الوعي الاجتماعي والكوني للإنسان ، وهي تكشف عن كيفية فهم الناس لدينهم وكيفية استيعابه وتمثله وترجمته إلى سلوكيات وممارسات ومواقف حياتية بحسب الخصائص والأوضاع المشتركة والمتباينة لهم والتي تحددت وتشكلت تاريخيًا إلى خصائص معاصرة محددة أيضًا بطبيعة الظروف التاريخية والبنائية التي يعيشونها .

والتدين بهذا المعنى وعي وممارسة فردية واجتماعية ومؤسسية ، وهو صيغة اجتماعية بالأساس لأنه انبثاق عن واقع اجتماعي موضوعي ، وهو محدد بأبعاد هذا الواقع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي في سياقتها التاريخية • والتدين بهذا المعنى أيضًا يرتبط ارتباطًا وثيقًا بهذا الواقع ويقوم فيه بتأدية ادوار ووظائف محددة ومتباينة تلبي حاجات متباينة أيضًا داخل الواقع الاجتماعي(٥).

ويمكن بالنظر إلى عدد من المعايير والمحكات الموضوعية أن نميز بين أنماط مختلفة للتدين بحسبانه واقعة تاريخية اجتماعية ، يأتي في مقدمة هذه المعايير درجة ومستوى حضور النص الديني الرسمي وتأويله

وتفعيله على الصعيد السياسى ، أو غياب هـذا الـنص ، ومن ثم غياب التأويل والتفعيل السياسى لـه وحضـور نصوص أخرى بديلة كالأساطير والمعتقـدات والأمثـال الشعبية . والمعيار الثالث هو كيفية تعاطى هذا الـنمط أو ذاك من التدين مع الحقيقة الاجتماعية بمستويات وأشكال وجودها كافة(٦).

وفى ضوء هذه المعايير يمكن أن نميز بين ثلاثـة أنماط أو مستويات للتدين ، تعد فى جوهرهـا مظـلات عقائدية دينية ، تفـرض أنماطـًا سـلوكية ومواقـف اجتماعية وسياسية بعينها ، مواكبة لها ، كمـا تفـرض منظومات جزائية تتناسب ومصالح جماعات اجتماعيـة واسعة داخل المجتمع.

والتدين الرسمى المؤسسى ، هو أول هذه الأنمـاط الثلاثة للتدين وهو تدين الدولـة ، أو التـدين السياسـى الرسمى حيث الدين بكل مؤسساته الرسـمية يعـد أحـد أجهزة الدولة الأيديولوجية من حيث هى ، أعنى الدولة ، مؤسسة طبقية بالأساس تفرض السيطرة علـى المجتمـع بكامله وتنظم هيمنة طبقة بعينهـا أو تحالفـًا طبقـًا معينـًا على طبقات المجتمع الأخرى . ويقوم الدين هنـا وعبر توظيفه وتشغيله كآلية للضبط والسيطرة وإضـفاء الشرعية وتبرير وتوسيغ السياسات والممارسات ، إلى حد إضفاء قداسة دينية مزعومة عليها استنادًا إلـى احتكـار النص الديني واحتكار تأويله أيضًا ، ويكـون الخطـاب الدينى الرسمى فـى هـذا السـياق خطابًـا مسكونـًا

بالاستسلام يطالب المؤمنين ، وبشكل مذهل ، بالإذعـــان والخضوع ويحاول إسدال غطاء من الإبهام على الـــدين بمجمله. وعبر هذا الخطاب يتم إما التأكيد والتشديد على نصوص دينية بعينها ، أو إهمال نصوص أخـــرى فـــى عملية اختيار انتقائى وتحكمى مغرض ، يخرج النصوص من سياقاتها التاريخية ويبسط سلطانها على الواقع الراهن . إنه خطاب يعكس بالفعل نمط العلاقة التـــى فرضـــتها الدولة تاريخيًا علي المؤسسات الدينية(٧) .

وبحكم سيطرة وملكية السلطة السياســـية لأجهـــزة الدولة الأيديولوجية فإنها تعد عنصـــرًا محوريًـــا ، بـــل وحاسمًا فى إنتاج وإعادة إنتاج الوعى الاجتماعى بأشكاله ومستوياته كافة. وفى هذا الإطار تـــنهض المؤسســـات الدينية الرسمية عبـــر وســـائطها Agents و وســـائلها Means بدور بالغ الأهمية فى صياغة الـــوعى الـــدينى للجماهير على تنوع تكويناتها الطبقية الاجتماعية.وعلى نحو يستجيب لمصالح هذه السلطة السياسية ويكون تعبيرًا عن هذه المصالح .

وتتمثل مهمة التدين الرسمى المؤسسى هنـــا فـــى العمل الدعوب لأجل ترسيخ وتقديس أنساق القيم والمعايير السائدة ، التى تضمن بقـــاء ودوام علاقـــات الســـيطرة والخضوع على المستوين الاقتصادى والسياسى ، وهـــى القيم ذاتها التى تضمن بالضـــرورة انضـــباط المجتمـــع بكامله ، وتضفى المشروعية على التوزيع الراهن لفرص الحياة داخله ، كما تمارس رقابة دينية اجتماعيـــة تحقـــق

وتضمن خضوع أفراد المجتمع وامتثالهم لهذه القيم والمعايير ، كما تحقق وتضمن فى الوقت ذاته تعطيل طاقاتهم والحيلولة دون إطلاقها لممارسة حقهم الإنسانى المشروع فى الإبداع والخلق .

والنمط الثانى هو النمط السياسى المعارض ، وداخل هذا النمط يمكن أن نميز بين نوعين من التدين السياسى المعارض ، فثمة تدين نصى مؤسسى معارض وهو تدين فريق من فقهاء ورجال الدين الرسميين داخل المؤسسة الدينية الرسمية ، إلا أنهم على خلاف مع طروحات هذه المؤسسة برغم انتمائهم العضوى لها . والتدين السياسى المعارض الآخر هو التدين السياسى الجهادى والانفصالى ، وهو تدين يكتسب طابعًا سياسيًا يجعل من النص الدينى وعبر تأويل وقراءة معينة لهذا النص إطارًا أيديولوجيًا ومرجعيًا له ويصوغ بالنظر إليه مشروعًا اجتماعيًا ويبنى حركة تنظيمية تتوسل المفاصلة والجهاد بكل أشكال ومستويات وجهودهما لإحداث قطيعة معرفية ووجودية مع المجتمع ولإحداث تغيير جذرى فى بنية المجتمع والدولة واللذين تعتبر وجودهما وفق قراءتها وتأويلها للنص الدينى وجودًا يفتقد للمشروعية بحكم ما أصابها من جاهلية وما حل بها من كفر . وهذا النمط من التدين يسعى إلى تجاوز الوضع الراهن ، يرفضه ويتمرد عليه وينفصل عنه على المستويين الشعورى أو الوجودى ويخلق لنفسه رموزاً وأساليب حياة وثقافة معاشة خاصة تؤكد هذه المفاصلة والعزلة(٨) .

وعادة ما يرتبط التدين المعارض الجهادى بحركات وتنظيمات تحاول جاهدة فرض مشروعها وتشغيله ، إما عبر الانخراط فى العمل السياسى الاقتصادى والاجتماعى فى إطار الشرعية ، أو من خلال العمل الجهادى المادى العنيف والمباشر الذى يدفع إلى تدمير النظام كلية والموسوم لديها بالجاهلية والكفر .

وفى الوقت الذى وجدت فيه القطاعات الشابة والمتعلمة ، من أبناء الطبقة الدنيا والشرائح الدنيا من الطبقة الوسطى فى المجتمع المصرى ، التى تضررت من سياسات وتوجهات الدولة ، أقول وحدث فى التدين السياسى الجهادى والعنيف وسيلة وآلية ، على قدر من الكفاءة والقدرة لتوجيه ضربات موجعة للدولة على أمل إسقاطها ، فان القطاعات الشعبية الواسعة من المصريين على اختلاف تكويناتهم الطبقية قد ظلت والى حد كبير وعلي نحو عملى وإجرائى بالفعل خارج الصراع الذى احتدم قرابة عقود ثلاثة بين جماعات وتنظيمات التدين السياسى الانفصالى الجهادى من جهة ونظام الحكم من جهة أخرى بالرغم من تذمر الأغلبية الفقيرة من هذه القطاعات الشعبية الواسعة أحيانًا من السلطة ونظامها وسياستها . ففقراء المصريين تابعوا مسيرة حياتهم بانتقالهم من حرمان إلى آخر وظلوا مستغرقين فى عالمهم الخاص فى قاع البنية الطبقية فى المجتمع المصرى بحكم التخلف والقهر والتهميش الذى يتمدد ليشمل مستويات وجودهم البائس كافة والذى يبدو لهم أنه لا فكاك منه أبداً

وكأنه قدرهم المحتوم. ولقد مالت هذه القطاعات الشعبية الفقيرة إلى نمط من التدين يكاد يكون استمرارًا لما كان سائدًا فى عصور الانحطاط وهو التدين الشعبى Popular Religiosity وهو النمط الثالث من أنماط التدين داخل التصنيف المقترح سلفًا . هذا التدين الشعبى يهدف إلى تسجيل الهروب من مواجهة واقع اجتماعى شديد القسوة والعداء لهم ، واقع يحفل بكل أنواع الحرمان والتفاوت والظلم الاجتماعى والاستبداد والقهر السياسى ، واقع تتسيده حداثة قاتلة حرموا ثمارها ، وتشيع فيه أيديولوجيات تروج لها أجهزة الدولة وتتسم بكونها شديدة الكذب والنفاق .

ويعد هذا التدين الشعبى محصلة لتكيف تاريخى بنائى متبادل ، بين الرسالة الدينية بما تحويه من عقائد وعبادات ومعاملات وطقوس من جهة ، والهياكل والأبنية الاقتصادية الاجتماعية والثقافية للمجتمع من جهة ثانية . وكانت محصلة هذا التكيف جملة من الظواهر الاجتماعية البشرية المتغيرة من مكان إلى آخر ومن زمان إلى آخر ، وهى فى مجموعها ليست من الدين الإلهى بشىء سواء ، كانت موافقة لثوابت هذا الدين الإلهى أم مخالفة له . ونكون فى هذا النمط من التدين بصدد الدين كما يعاش وكما يمارسه الناس فى حياتهم اليومية ، بما يتعارفون عليه خلال هذه الممارسات من رؤى وتصورات وأعراف وتقاليد ألحقها بالدين وهى ليست منه . إنه تدين يصدر عن الظروف الحياتية التى يوجد فيها الأفراد والجماعات . وبتعبير آخر ،

نكون بصدد الدين ، ليس كنظام معيارى ، وكما هو موجود فى الكتب والأسفار المقدسة ونصوصها وتأويلاتها وشروحها ، وإنما نكون بصدد الدين التاريخى الاجتماعى المتضمن فى ثقافة المجتمع والذى يتخلل كل بنياته. ولقد ثبت بالمعاينة والمشاهدة أن الناس يؤسسون بالفعل ، وفى سياقات تاريخية بنائية أديانهم الشعبية ، وهى أديان تختلف بالضرورة باختلاف المجتمعات ومستوى تطورها ، ومن ثم كان طبيعيًا أن نجد ظواهر إسلامية شعبية فى مصر ، لا نجد نظيرها فى أى مجتمع مسلم آخر ، كإندونيسيا أو العراق مثلا ، والعكس صحيح بالطبع . وعلى هذا النحو تختلف المجتمعات الإسلامية المعاصرة فى أديانها الشعبية ، بل إننا نجد داخل المجتمع الواحد طبعات محلية للإسلام ، تؤثر فى الناس وتسير حياتهم جنبًا إلى جنب مع الإسلام الرسمى المؤسسى الإلهى(٩).

ويكاد يكون هذا التدين الشعبى إلزامًا جماعيًا ، أكثر من كونه واجبًا دينيًا فرديًا وهو يخضع لمنطق التماثل والظروف التاريخية المعاشة والواقعية ، التى يعيشها الأفراد والجماعات ويوجدون فيها بالفعل ، أكثر من خضوعه لحاكمية النصوص الدينية المقدسة ، وهو يتجسد فى بنية ذهنية وأطر تنظيمية ، ويعبر عن وجوده فى مواقف وسلوكيات منظمة تحكمها العادات الاجتماعية ، التى قد تكون أكثر صرامة وحاكمية من أحكام الدين ذاته . إنه تدين يرتبط – كما ذكرت قبلاً – بحياة الناس أكثر من

ارتباطه بنصوص الدين وروحه أيًا كانت هوية هذا الدين[١٠].

وفى تقديرى أن شيوع الأمية لدى الجماهير الفقيرة قد حالت دون استظهارها للنصوص الدينية ، إلى الحد الذى يمكن التقرير معه ، بأن هذه النصوص تكاد تنمحى من ذهنياتها . وبإزاحة هذه الجماهير الفقيرة من مجال النص الدينى الرسمى ، وانتقال هذا النص إلى أيدى السدنة وكهان الدولة ورجال الدين المتخصصين وكذا الجماعات الانفصالية الجهادية ، لم يعد ليبقي فى ذهنية هذه الجماهير الأمية من النصوص الدينية ، إلا أشباح مبهمة ، إن جاز لنا استخدام هذا الوصف ، تتذكرها فحسب فى المناسبات الدينية ، وفى الترحم على موتاها ، ومن ثم والحال هكذا فإن التدين الشعبى تدين غير نصى تقريبًا ويتصل فى وعى الناس ووجدانهم بالماضى القديم الأسطورى والممارسات الطقوسية . وأتصور أن الخطاب الدينى الرسمى الذي تلوكه وتجتره أجهزة الدولة الأيديولوجية ، وبرغم قوة تأثيرها وفعالياتها على مدار الساعة ، لم يكن ليصل إلا إلى القشرة الخارجية للذهنية الشعبية ، التى احتوت على بنية متكلسة من الرؤى الكونية ، والتصورات والمعتقدات والطقوس والممارسات الدينية المغايرة إلى حد كبير لما تبثه هذه الأجهزة ، بل والمغايرة أيضًا لعمليات الأدلجة Idealogization التى قامت بها الجماعات الأصولية السياسية الإسلامية المعارضة . وتعطى هذه الرؤى والتصورات والمعتقدات

والممارسات الدينية الشعبية اهتمامًا ضـئيلاً بالمبـادئ الدينية الأساسية ، كسلامة وصـحة الاعتقـاد ونقائـه ، والقواعد والحدود الدينية .

وعندما نتجاوز حدود الممارسات الدينية الخالصـة التى لا تشغل إلا حيزاً محدوداً من اهتمامات القطاعـات الشعبية الفقيرة من المصريين ، ونـذهب مباشـرة إلـى تفحص ممارستهم الاجتماعية الشعبية ، عند تماسها مـع دينهم ، أى عندما ندرس تجليات هذا الدين في الممارسات الاجتماعية التلقائية ، داخل واقعهـم المعـاش ، عندئـذ تتكشف أمامنا الطبيعة الحقيقية للتدين الشعبي للفقراء من المصريين ، والملامح الأساسية لهذا النمط من التدين .

ويأتى في المقدمة هنا أن التدين الشعبي المصـري يكاد يكون واحدًا في جوهره وماهيته ، وحيث تتجلى فيه وحدة الدين وكل المصريين ، ووحدة وطنهم أيضًا .

فهذا التدين الشعبي لا يفرق في جوهره بين المسيحية والإسلام ، قد تختلف أشكاله وصوره إلا أنه تاريخيًا يمثـل بنية اجتماعية وثقافية وذهنية واحـدة وظروفـاً تاريخيـة متشابهة وجوهرًا واحدًا . وهذه الوحدة مردودة إلى تـرابط الحياة الاقتصادية والاجتماعية والدينية ، في ريـف مصـر وحضرها لعموم المصريين ، فضلا عـن أن المسـيحيين المصريين ، لا يشكلون بحال جماعة إثنية متمـايزة داخـل النسيج الاجتماعي المصرى ، فهم ليسو أقلية منعزلة علـى المستويات الاقتصادية و السياسية والجغرافية ، وعلى صعيد الثقافة ليس ثمة تباين بين المسيحيين والمسلمين المصـريين

إذ إننا لا نستطيع أن نميز بينهما ، فكلا الجماعتين تجمعهما ثقافة واحدة مشتركة هي الثقافة المصرية .

التدين الشعبي إذن هو الدين كما يمارسه عموم المصريين في حياتهم اليومية ، وحيث نجح المصريون ، وباقتدار فى صهر أديانهم بثقافتهم القومية ، إلى الحد الذى يدفع إلى تقرير أن الاثنين قد صارا شيئا واحدًا يصعب أحياناً التمييز بينهما ، أى بين ما هو دينى وما هو منتج ثقافي. فالمصريون جميعهم كل منهم يؤمن بعقيدته المسيحية أو المسلمة ، إلا أنهم وعلى صعيد الفكريات والممارسات الدينية الشعبية ، يجمعهم إيمان عميق بالأولياء والقديسين والتبرك بهم والتوسط من خلالهم إلى الله لتحقيق آمانيهم وآمالهم وطموحاتهم الدنيوية ، وهم يعتبرون التقرب إليهم شكلاً من أشكال التقرب إلى الله شأن الصلاة والصوم . وتاريخيًا عشق المصريون الأولياء والقديسين ، يحتفلون بمواليدهم ، ويقدمون النذور باسمهم ، وهم فى هذا كله لا يفرقون بين ولى وقديس فجميعهم سواسية لديهم فى الحب والإجلال والتوقير . إن التدين الشعبى المصرى على تنوعه هو فى جوهره دين واحد ، يقوم على الإيمان بالله وبعالم الغيب والقضاء والقدر والقسمة والنصيب والمقدر والمكتوب ، والرزق المحدود والمكفول ، واليوم الآخر والبعث والنشور والحساب والعقاب والجنة والنار ، وتوقير الموتى واحترامهم وزيارة قبورهم (١١) .

وفي كل هذه المعتقدات والممارسات الدينية ، والتى تكتسى فى جانب كبير منها بطابع فولكلورى ، قد لا تلمح فرقـًا واضحًا بين المسيحيين والمسلمين ، كل ما هنالك أن الأسماء قد تتغير قليلا ، فجميعهم مصريون يشتركون في وجود مساحة واسعة وكبيرة من التسامح الديني ، وتجمعهم معتقدات وأساطير شعبية تتعلق بقوى الطبيعة ، والإيمان بالعجائب ، الخارقة ، وشخصنة القوى ، المقدسة والوسطاء بين الله وعباده ، إلى حد تركز التعبد في أحيان كثيرة حول شخص الولي أو القديس . وهم يتمسكون بتقاليد مشتركة مستمدة من عهود قديمة ، بعضها يعود إلى ما قبل الرسالات ، ويسود بينهم فهم شعبي محدد لماهية الحلال والحرام ، وتصورات بعينها للجنس ومنظومة الجزاءات ، ورؤية الآخر الدينى ، ودورة الحياة والموت ، ورؤية الواقع الاجتماعى بكل ما يحفل به من تناقضات . وجميعهم يتوسلون الوساطة الدينية ، على أمل التقليل من فداحة هذا الواقع ، وقسوة تناقضاته ، وعجزهم عن التأثير فيه وتغييره وهذه المكونات فى مجموعها تشكل المجالات الأساسية التى يمكن من خلالها ملاحظة الذهنية والممارسة الاجتماعية الشعبية ، فى تقاطعها مع الدين فى المجتمع المصرى مسيحياً كان أم إسلاميًا(١٢) .

وتتسم المعتقدات والممارسات الدينية التى تشكل صلب التدين الشعبى ومحتواه ، بكونها تكاد تكون مستقلة استقلالاً نسبيًا عن المؤسسة الدينية الرسمية . كما يتسم

هذا التدين الشعبى بتنوعه الشديد بحسب البيئات الجغرافية والاجتماعية والأحوال الاقتصادية وأنماط المعيشة على طول الامتداد الرحب لأرض مصر . وثمة صراع خفى ومعلن فى الوقت ذاته ، بين التدين الرسمى المؤسسى والتدين الجهادى الانفصالى من جهة ، والتدين الشعبى من جهة أخرى ، بدعوى استغراق الأخير فى البدع والخرافة والقدرية والأسطورية ، ولم يَحلْ هذا الصراع دون تعايش هذه الأنماط الثلاثة من التدين معًا بسبب عمق ورسوخ التدين الشعبى فى حياة المصريين . ويبرز التدين الشعبى عندما تتصاعد وتائر الظلم الاجتماعى ، وتتفاقم حدة البؤس الاقتصادى ، وتشتد وطأة الاستبداد والقهر السياسى ، دون تدخل من قبل العدالة الإلهية ، وعندما يتحول الإله إلى محض فكرة مجردة أو وجود متعال ليس كمثله شىء وتندر تجلياته فى واقع الناس المعاش . عندئذ تكون الطبقات الشعبية الفقيرة والعاجزة ، فى احتياج لوسيط يتجسد أمامهم ، يتحسسونه ويشاطرهم حياتهم ، ويتحسس مآسيهم ويقدم لهم المدد والعون ، لحل مشكلاتهم وينصرهم على ظالميهم ويتكلم لغتهم . ولكل ذلك كان طبيعيًا أن تكثر أضرحة الأولياء والقديسين والمزارات والزوايا والطرق الصوفية ، فى الأحياء الشعبية الفقيرة والمحرومة فى المدن المصرية ، وفى القرى التى عجزت أيادى التنمية عن الوصول إليها وباتت بدورها تعانى الفقر والحرمان[١٣] .

وتاريخيًا ، كانت الطرق الصوفية هى الإطار التنظيمى والعقائدى للتدين الإسلامى الشعبى ، وبرغم أنها كانت ولا تزال تنظيمات موازية وأحيانًا متحدية للتدين الرسمى المؤسسى ، إلا أنها لم تطرح نفسها كبديل لهذا النمط من التدين ، بقدر ما كانت ردة فعل شعبية لتصلب السلطة الدينية الرسمية وتسلطها على المجتمع بكامله . وصارت هذه الطرق وعاء تاريخيًا اجتماعيا دينيًا يحتوى كل الطقوس والمعتقدات الشعبية الأسطورية قبل الإسلام ، والتى تأخذ اليوم طابعًا احتفاليًا مملوءً بالبدع الشعبية ، فضلاً عن احتوائها للفنون الجماعية الشعبية التلقائية كالذكر أو الرقص الدينى ، على نحو ما تصفه المصادر الأجنبية ، وكذا الموسيقى الشعبية والإنشاد الدينى . ومن وجهة النظر التنظيمية ، تتشابه الطرق الصوفية وإلى حد كبير مع الأطر التنظيمية ، التى اعتاد الشعب المصرى تاريخيًا وبعيدًا عن سلطة الدولة ، أن يعيش وينتج فى سياقها ، كنظام الطوائف الحرفية القديم . فكل طريقة لها تنظيم هرمى ، شبه إدارى ، وتمكنت هذه الطرق عبر تنظيماتها ، من احتواء الشرائح الدنيا المصرية ، التى رأت أن الفقر شعار الصالحين ، وأن الجاهل الأمى الفارغ قلبه من المعرفة والعلوم الدنيوية يمكنه الوصول بسهولة لأن يكون وليًا صالحًا لله ، لأنه وحاله هذه يصبح من السهولة بمكان أن يمتلئ قلبه بالعلوم الربانية ، وحيث لا تنكشف الحجب ولا تزال الأستار إلا للفقراء الصالحين لأنهم عيال الله وأحبابه .....!![١٤] .

ويكاد يكون التدين الشعبى وعلى هذا النحو ، فى تقديرى ، ظاهرة خاصة — وإلى حد كبير — بمجتمعات الثالثيين ؛ فهذه الظاهرة تعد نتاجًا ضروريًا لاستمرار علاقات الإنتاج قبل الرأسمالية ، داخل التكوينات الاقتصادية الاجتماعية الطرفية والتابعة التى تحويها هذه المجتمعات ، فالقانون العام والحاكم لتطور هذه التكوينات التابعة ، أنها فى تطورها تعجز نسبيًا عن القضاء على علاقات الإنتاج السابقة للرأسمالية ، بكل ما تحمله من بنيات تحتية وفوقية ، وتظل متعايشة معها ، وتميل إلى تجددها وإعادة إنتاجها. وقد تولد بفعل هذه الوضعية حالة من العجز ، عن إحداث قطيعة نوعية مع الماضى ، بكل مشتملاته المادية والفكرية . وصارت هذه المجتمعات وكأنها مشدودة إلى هذا الماضى ، بحبل سرى ، لم يعد بمقدورها قطعه . والأمر الآخر — فى تقديرى — هو أن الأطر التنظيمية والبنية الذهنية للتدين الشعبى ، وما يحتويه من عقائد وطقوس وممارسات ، قد صارت جميعها أدوات وآليات بديلة ، تحقق تماسك الوحدات الاجتماعية التقليدية والدنيا ، وتعلن تميزها عن المؤسسات الرسمية الحديثة ، بل قد تصبح فى حالات بعينها ممارسات تحد وصراع لهذه الوحدات الاجتماعية التقليدية والدنيا ، فى مواجهة السلطة السياسية ، حال غياب مؤسسات حديثة فعالة ، يمكنها أن تعبىء هذه الوحدات وتكتل إرادتها وتنظمها وتحركها فى صراعها مع النظام القائم(١٥) .

الأمر الثالث والأخير ، فى تأويل استمرارية هــذا النمط من التــدين ، هــو أن المعتقــدات والممارســات والطقوس التى تشكل محتوى التدين الشــعبى ، وعلــى مستوى بنيته الذهنية وأطره التنظيمية ، تعود بــالخير — وفى كثير من الأحيان — على نظم الحكم ، التى كثيرًا ما تستخدم هذا التدين ، فضــلاً عــن التــدين الرســمى ، لصالحها ، وذلك بالنظر إلى كونه يشكل مهربًا من الواقع وليس خروجًا عليه أو مجابهته أو تجاوزه ، ومن ثم فهذه النظم تحرص كل الحرص ، على استمرارية هذا الــنمط من التدين ، وعلى إعادة إنتاجه وتكريسه .

الفصل الثانى

فقراء الحضر

محددات وجودهم الفردى والاجتماعى

يعد الفقر نتاجًا لسيادة علاقات إنتاجية وتوزيعية ، تتسم بالتفاوت والتمايز وعدم المساواة بين الجماعات الطبقية داخل المجتمع ، وهى وضعية تتخلق بفعل الملكية الخاصة الفردية ، والتفرقة بين أنماط العمل اليدوى والذهنى ، وتناقض علاقات الإنتاج والتوزيع المرتبطة بأشكال الاستغلال الطبقى والعمل الماجور . وعليه نكون بصدد متغيرات تاريخية بنائية حقيقية تخلق الإفقار وتعيد إنتاجه وتكرس وجوده وديمومته . ولكل ذلك يقتضى تحديد الفقر وفهمه كشفًا للعلاقات والمواضع الأساسية للجماعات الاجتماعية المشاركة فى البناء الاجتماعى وبيان دينامية العلاقات بين أغنياء المجتمع وفقرائه ، وكذا كشف صور وأشكال الصراع الاجتماعى ووجهته ، وذلك فى سياق يتأسس نظريًا على اعتبار الفقر ، وضعية تنجم عن تراكمات تاريخية لأشكال الاستغلال والاستنزاف والاستملاك ، التى خضعت لها جماعات اجتماعية بعينها انتهت بها إلى وضعية الفقر ، (١٦) . وتأسيسًا على ما سبق يمكن أن نحدد عددًا من المصاحبات التي تعد مؤشرات ، أو ظواهر دالة على الفقر ، يأتى فى مقدمتها انخفاض مستوى معيشة الفقراء ، والذى نجد تعبيراته في تدني مستويات الدخول وشيوع الأمية ، وتضعضع المستوى الصحي ، والبطالة . ويواكب هذه الوضيعة سيادة وعي زائف لدى الفقراء ، تخلقه وتكرسه المؤسسات والأجهزة الأيديولوجية الحاكمة ، والتي تسعى من خلاله إلى تحقيق قبول الفقراء لأوضاعهم واستسلامهم

لمصيرهم ، وترسيخ القدرية التي تصالح الفقراء مع واقعهم وتبعد عن أذهانهم حتى مجرد التفكير فيما يكابدونه . ويواكب هذا القهر والقمع المعنوي ، قهر وقمع مادي من قبل أجهزة ومؤسسات الدولة القمعية المسلطة على المجتمع بكامله ، لضمان الخضوع والإذعان الدائم ، هذا فضلا عن الاستبعاد الاجتماعي للفقراء ، والذي يحرمهم من أية مشاركة اجتماعية أو سياسية في إدارة وطنهم وصنع الحياة على أرضه • الفقر إذا ليس قدرًا محتومًا يهبط من السماء ، وتفرضه قوى من خارج عالمنا المادي المحسوس ، وإنما الفقر محصلة لأوضاع تاريخية بنائية ، تشكلت على الأرض وفي دنيا الناس ، ويرتبط بنظام الإنتاج الاجتماعي السائد ، ويدعمه بنية فوقية تؤكد على التفاوت والتمايز والطبقية ومراتب الناس ودرجاتهم وأقدارهم ، المتباينة كمتغيرات فوقية تدعم أوضاع الفقر وتعيد إنتاجه . وبالإمكان أن نحدد الفقر إجرائيا ، بأنه فقدان القدرة على إشباع الاحتياجات المادية والاجتماعية الأساسية ، التي تضمن بقاء الإنسان حيًا ، أو تضمن فحسب وجوده الفيزيقي . وثمة مؤشرات إمبيريقية يمكن قياس الفقر وفقًا لها ، ويأتي في مقدمتها حجم الفقر النسبي ، وهو يشير إلى حجم الدخل النقدى المطلوب لاستمرارية الحياة ، أو ما يطلق عليه خط الفقر النسبي ، وهو يشير إلى حجم الدخل الذي يستطيع الفرد من خلاله الوفاء باحتياجاته الأساسية ، ووفق ذلك يكون من يقع أدنى هذا الخط محشورًا في زمرة الفقراء المؤشر

الثاني هو القياس الكمي لحجـم الاسـتهلاك المطلـوب لاستمرارية الحياة من غذاء ومسكن وملـبس وخـدمات صحية وتعليمية .

المؤشر الثالث هو الشعور أو الوعي بالفقر . أمـا المؤشر الأخير فهو الإحساس بالتفاوت والتمايز بين الغني والفقير [١٧] .

وتؤكد التقارير الدولية التي تصدرها الأمم المتحدة عن التنمية البشرية في العالم ، على تزايد معدلات الفقر في المجتمع المصرى ، وكان أخطـر هـذه التقـارير ، تقرير ، عن التنمية البشرية ، تبنى مفهوما شاملا للفقـر مبينـًا على الحرمان ، سواء من الدخل أم من الحصول على الخدمات أم الحرمان مـن المشـاركة فـي الحيـاة السياسية ، وأشار هذا التقرير إلى أن نحو ٣٤ مليون من المصريين ، ينطبق عليهم هذا التعبير الشامل للفقر .أمـا التقارير الأخرى الذى اعتمدت فقر الدخل فحسـب فـى تحديد نسبة الفقراء ، فإنها تشـير إلـى أن ٤٨% مـن مجموع السكان المصريين يقعون تحت خط الفقر ، الذى تم تحديده بمبلغ ١٠٩٨ جنيهًا للفرد سنويًا أى ما يعـادل ٩١,٥ جنيه للفرد شهريًا[١٨] • ويعد هذا الانتشار الواسع للفقر ، وما يرتبط به من سوء توزيع للـدخل والثـروة وحرمان نسبى ومتنوع وممتد ، ليشمل حياه ما يقرب من نصف السكان فى مصر ، نتاجًا مباشرًا لاسـتراتيجيات التطور الاقتصادى والاجتماعى ، وللاختيارات السياسية التى أنتجها نظام الحكم فى مصر ، منذ مطلع العقد السابع

من القرن العشرين المنصرم والتى آثر خلالها مصالح الأقلية الميسورة ، على حساب الأغلبية الفقيرة من أهل مصر ، وهى استراتيجيات واختيارات دفعت إلى الإدماج فى الاقتصاد الرأسمالى العالمى ، ثم إلى الرضوخ لبرامج وإجراءات التكيف وإعادة الهيكلة الرأسمالية مع نهاية الثمانينيات ومطلع العقد الأخير من القرن العشرين ، والتى قضت بخلق اقتصاد غير مركزى ، بعيدًا عن توجه الدولة وتدخلها ، وعملت على دعم القطاع الخاص فى مجال النشاط الإنتاجى والخدمى ، فى مقابل تحجيم دور القطاع العام والحكومى ، والحد من نشاط مؤسساته الإنتاجية ، ثم التخلص منها وتصفيتها ، وإطلاق قوى السوق ، وتحرير أسعار الصرف ، وإزالة القيود أمام الاستثمار الخاص وخفض الدعم الحكومى للسلع والخدمات الأساسية ، وتقليص الإنفاق الحكومى على الخدمات الاجتماعية ، وخفض معدلات التوظيف ، إلى أدنى حد ممكن ، وزيادة الضرائب لأجل زيادة الإيرادات العامة للدولة(١٩) وقد بدت تجليات وآثار هذه الاستراتيجيات والتوجهات فى المدن المصرية ، فى تدنى الدخول الحقيقية لقطاعات واسعة من سكان الحضر ، وكان أعظم تدهور وتدنى للأجور ، هو ما حدث بالنسبة للأجور الحقيقية للعمال غير المهرة من فقراء الحضر ، كما بدت هذه الآثار واضحة فى تدهور الخدمات العامة التى تحتاجها هذه القطاعات ، وفى ندرة سلع الاستهلاك الأساسية ، وارتفاع أسعارها بما يفوق قدراتها الشرائية ،

كما زادت حده التفاوت فى توزيـــع الـــدخل والثـــروة ، وتناقصت فرص الفقراء إجمالا ، فى الحصول على السلع والخدمات الضرورية لحياتهم ، ووقفت نسبة كبيرة منهم تشكل نحو ٢١% من سكان الحضر فى مصـــر ، تحـــت خط الفقر الأولى ، بما يعنيه من عدم حصول هذه الفئات على الدخل اللازم للوفاء بالحـــد الأدنـــى لاحتياجـــاتهم الأساسية من الغذاء والصـــحة والتعلـــيم ، والإســـكان • وارتبط ذلـــك بتكـــريس وضـــعية الفقـــر ، والتفـــاوت الاجتماعى ، من خلال ارتفاع معدل التسرب ، من التعليم والدخول المبكر لسوق العمل ، والارتداد إلـــى الأميـــة ، وتضعضع المســـتويات الصـــحية العامـــة ، وانخفـــاض الإنتاجية ، وتدنى معدلاتها ، وارتفـــاع نســـبة الســـكان المقيمين فى مناطق فقيرة ومحرومة ، تشكل أحزمة للفقر والبؤس حول المدن المصـــرية الكبـــرى[٢٠] . إن تأمـــل أوضاع الفقر فى حضر مصر ، فى ضـــوء المؤشـــرات الإحصائية المتوافرة[٢١] ، يكشف عن أن الفقر لا يتمثـــل فى الحاجة المادية أو ضيق ذات اليد فحسب ، وإنما الفقر فى جوهره يشكل حزمة معقدة من المشكلات الناجمة عن وجود خلل فى بنية ، المجتمـــع خاصـــة فـــى علاقاتـــه الإنتاجية ومايرتبط بها من توزيع للثروة و الدخل علـــى الجماعات الطبقية داخله ، وهذه الحزمة من المشـــكلات تمس قطاعا عريضًا من أهل مصر ، الذين لا يتوافر لهم الغذاء الجيد والملبس والعمل والأجر المناسب والمســـكن وتتدنى ــ أو تنفى فى بعض الأحيان ــ الخدمات المختلفة

المقدمة لهم كالتعليم والصحة والأمن٠ وهذه الجماعات الطبقية تستشعر الشرائح المتعلمة والمثقفة منها عدم تقدير باقى الطبقات لهم ، وعدم استجابة الدولة وأجهزتها المعنية لاحتياجاتهم ، وهى وضعية تولد الإحساس بالغبن والظلم الاجتماعى ، وتشيع السخط وتأجج نيران التناقض الاجتماعى ، وتدفع فى النهاية إلى التعبئة فى اتجاه مضاد للدولة ولسياساتها . وحال نضج الوعى الاجتماعى لهذه الشرائح واكتمال قدراتها التنظيمية والحركية ، يمكن أن تكون دافعا للتمرد أو الثورة الاجتماعية . ويمثل وصف عينة البحث الراهن ، وبما يحمله هذا الوصف من بيان لمحددات وجودها الفردى والاجتماعى ، تجسيدًا إمبيريقيًا لكل أوضاع الفقر وحالاته ، التى يخبرها فقراء الحضر من المصريين المعاصرين . فالبيانات التى تم الحصول عليها من استبار مفردات عينة البحث ، تشير بداية إلى أن المتوسط الحسابى لأعمارهم يدور حول ٤٠ سنة ، مع انحراف محدود عن هذا المتوسط بالنسبة للذكور والإناث فى عينة البحث ، فالنسبة الغالبة منهم تتراوح أعمارهم مابين ٢٥ سنة إلى أقل من ٥٠ سنة ، ويشكلون ٩٢,٨٦% من مجموع الذكور ، و ٨٤% من مجموع الإناث٠ أما من يمكن اعتبارهم فى حكم كبار السن فيشكلون ٧,١٤ % من مجموع الذكور ، و ١٦% من مجموع الإناث . ويعنى هذا أن الفئات العمرية الشابة التى تقع فى سن الشباب والقوى العاملة وفق التقسيم الديموجرافى المعروف ، تشكل الجانب الأعظم من عينة

البحث . وبالانتقال إلى محدد آخر ، من محددات الوجود الفردى والاجتماعى لعينة البحث ، وهو المستوى التعليمى ، فإننا نجد أن الأميين من الذكور يمثلون ٤٧,٩٦ % ، فى حين تمثل الأميات من النساء ٦٨ % من مجموع عينة البحث وهى نسبة تقترب إلى حد كبير من النسبة العامة للأمية على مستوى محافظة الفيوم ، كما تقترب من النسبة العامة للأمية على مستوى المجتمع المصرى بكامله ، وهى طبقًا لبيانات تعداد عام ١٩٩٦.
ويكشف التوزيع والتكوين النوعى للمستوى التعليمى عن ارتفاع نسبة الإناث الأميات ، كما يشير أيضًا إلى أن نسبة الأمية فى عمومها تأخذ الاتجاه العام ذاته لتوزيع الفقر ، فهى تبلغ حدها الأقصى فى ريف الوجه القبلى ، ثم ريف الدلتا ، ثم حضر الوجه القبلى[٢٢] . ومن الممكن تأويل الارتفاع النسبى لمعدل الأمية فى مجتمع البحث وعينته ، بالنظر إلى أمرين : الأول هو تدنى مستويات المعيشة لغالبية الأسر ، وفقرها إجمالا والمصحوب بارتفاع معدل الزيادة الطبيعية لهذه الأسر فى الوقت ذاته ، فضلا عن ارتفاع معدل التزاحم داخل بيوت الفقراء . ومع تدنى مستوى الخدمات التعليمية المجانية ، وارتفاع تكلفة التعليم فإن المحصلة النهائية لكل هذه المتغيرات هى الحرمان من التعليم أصلا ، كما هو الحال بالنسبة لكثير من الإناث ، أو ضعف وتدنى المستوى التعليمى لأبناء الأسر الفقيرة وعدم إكمال المشوار التعليمى ، وحدوث تسرب مبكر من التعليم ، يدفع

بالضرورة إلى الارتداد إلى الأمية . والأمر الثـاني أن أبناء الأسر الفقيرة برغم صغر سنهم ، وفي ظل أوضاع الفقر ارتأى ذووهم أن التعليم ، لم يعد مجديًا من وجهـة نظرهم الاقتصادية ، ويتم النظر إلـى هـؤلاء الأبنـاء كوحدات اقتصادية ، يمكن أن تستعين بها أسرهم الفقيرة ، لسد احتياجاتها ، بدفعهم مبكرا إلى سوق العمـل ، فـي الورش الصغيرة المنتشرة داخل الحي ، أو في الأحيـاء الأخرى القريبة . وتشير البيانات التي حصلنا عليها إلـى وجود فجوة في المستوى التعليمي بين الذكور والإناث ، في فئات من يقرأون ويكتبون ومن أتموا مرحلة التعلـيم الأساسي ، فهي في الذكور تشكل ٤٣,٨٨% من إجمالي عينة الذكور ، وتشكل ٢٨% لدى عينة الانـاث . وهـو تفاوت مردود إلى وضعية التدني والقهر المكثف ، الـذي تتكبده الإناث داخـل الطبقـات الفقيـرة فـي المجتمـع المصري . ويشكل الحاصلون علـى شـهادات ثانويـة متوسطة فنية في معظمها نحـو ٨,١٦% مـن مجمـوع الذكور ٤% من مجموع الإناث في عينة البحث ، ويعني هذا غياب تمثيل الحاصلين على درجات جامعية داخـل عينة البحث وهو غياب مردود إلـى الطـابع القصـدي والغرضي لعينة ، البحث وحول الحالة العملية والمهنيـة لعينة البحث فقد تبين أن نسبة العاملين بالفعل من العينـة ذكورًا وإناثـًا تمثل حوالي ٦٩% مـن مجمـوع عينـة البحث ، ويتوزعون مابين عمال إنتاج محدودين ، وعمال خدمات متنوعة ، وصغار فلاحين يمتلكـون مسـاحات

زراعية قزمية ، يقومون بزراعتها بأنفسهم . أما المتعطلون عن العمل ، وغير العاملين ، والمتقاعدون من أرباب المعاشات فيمثلون حوالى ٣١% من مجموع عينة البحث ، ومعظم هؤلاء من الإناث وربات البيوت ، مع عدد محدود من الذكور المتعطلين فعلا ، وأرباب المعاشات . وتكشف البيانات الخاصة بالحالة العملية والمهنية لعينة البحث عن أمرين : الأول هو تنوع البناء المهنى داخل عينة البحث ، وهو يعكس التنوع والتباين المهنى فى المجتمع الأصلى للبحث ، والأمر الثانى هو تعاظم نسبة المشتغلين فى القطاع غير الرسمى Informal والمرتبط بالقطاعات الخدمية على هامش القطاع الاقتصادى الحديث ٠ وفيما يتعلق بالدخل الشهرى ومصادره ، فقد تبين أن المتوسط العام للدخل الشهرى للأسرة فى عينة البحث هو ٢١٧,٨٢ جنيهًا ، أى ما يعادل ٢٦١٣,٨٤ جنيهًا فى السنة ، وهى دخول متولدة عن عمل مأجور فى معظمها سواء لدى الحكومة أم القطاع الخاص ، مع نسبة محدودة للغاية تتأتى دخولها من العمل لحساب نفسها فى مساحات محدودة من الأرض الزراعية ، أم العمل باعة متجولين داخل الحى ، أم العمل فى الورش الصغيرة المملوكة للبعض منهم ٠ ولقد كشفت نتائج البحث عن أن نسبة تصل إلى ٢٠,٦٨ % من أسر عينة البحث تعيش على أقل من مائه جنيه فى الشهر ، ونحو ٢٥,٢٩% تعيش على دخل يتراوح مابين ١٠٠ إلى أقل من ٢٠٠ جنيه فى الشهر ، ويزيد عن هؤلاء قليلا

تلك الأسر التى تعيش على دخل يتراوح مابين ٢٠٠ إلى أقل من ٣٠٠ جنيه فى الشهر ، ويمثلون نسبة تصل إلى ٢٧,٥٩% من مجموع أسر عينة البحث . ويقل عن المجموعة الأخيرة قليلا مجموع الأسر التى تعيش على دخل شهرى يتراوح ما بين ٣٠٠ إلى أقل من ٤٠٠ شهريًا ويمثلون نسبة تصل إلى ٢٠,٦٨% من مجموع عينة البحث . إن تأمل فئات الدخل الشهرى لأسر عينة البحث والمذكورة سابقاً ، يكشف عن أن ما يقرب من ٩٤% من مجموع عينة البحث تقل دخولها الشهرية عن ٤٠٠ جنيه للأسرة الواحدة . هذا مع الأخذ فى الاعتبار أن المتوسط العام لحجم الأسرة فى عينة البحث هو ٧,٤٦ فردًا فى الأسرة الواحدة ، وأن المتوسط العام للدخل الشهرى للفرد داخل أسرة عينة البحث هو ٢٩,٢٠ جنيها ، وهو ما يعادل حوالى ٣٥٠ جنيهًا فى السنة . أما بقية عينة البحث فقد توزعت مابين ثلاث أسر فحسب تعيش على دخل شهرى يتراوح مابين ٤٠٠ إلى أقل من ٥٠٠ جنيه ، وأسرتين تعيشان على دخل يتجاوز بقليل ٥٠٠ جنيه فى الشهر ، ونسبة هذه الأسر الخمس إلى مجموع عينة البحث ، يمثل ٣,٤٨% و ٢,٢٨% على التوالى . وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا التفاوت والتباين المحدود فى فئات الدخل لمفردات عينة البحث مردود إلى وجود فرص ضئيلة ومحدودة لدى البعض ، من هذه المفردات لزيادة دخولهم عن طريق أعمال إضافية ، تستنفد ما تبقى من طاقتهم ، أو بفعل مساعدات الزوجة

فى الإنفاق ، بتربية الحيوانات الداجنة وبيعها ، وبالخدمة فى المنازل خارج الحى ، أو نتيجة لمساعدات الأهل والأقارب القادرين. وإذا كانت مؤشرات بحث الدخل والإنفاق والاستهلاك للأسرة المصرية فى عام ١٩٩٦/٩٥ تشير إلى أن متوسط الدخل السنوى للأسرة على مستوى الحضر هو ٨٩٤٠ جنيهًا ؛ فإنه وفقًا لفئات دخل عينة البحث ، والتى تشير إلى أن ٩٤,٢٤% منها يقل دخلها عن ٤٧٨٨ جنيهًا فى السنة ، وأن المتوسط العام للدخل السنوى للأسرة فى عينة البحث هو ٢٦١٤ جنيهًا تقريبًا ، وأن المتوسط العام لدخل الفرد السنوى فى هذه الأسر هو ٣٥٠ جنيهًا تقريبًا ، ومع الأخذ فى الاعتبار تزايد معدلات التضخم والارتفاع المستمر فى أسعار السلع والخدمات الأساسية ، دون أن يقابلها زيادة حقيقية وفعلية فى الأجور والدخول ، فإن محصلة ذلك كله أن أصحاب هذه الدخول فى عينة البحث هم أفقر الفقراء ، أنهم أهل الفقر المدقع الذين يقفون بدخولهم عند أدنى مستوى ممكن تحت خط الفقر ، والذى يتحدد بمن يقل دخله عن مبلغ ١٠٩٨ جنيها للفرد فى السنة ، أى ما يعادل ٩١,٥ فى الشهر ، وعلى نحو ما تحدد فى نهاية عام ١٩٩٠ . وعليه فهذه الأسر تعانى بالفعل من ضآلة دخولها النقدية ، وتدهور مستوياتها المعيشية ، فهى دخول لاتفى إلا بالكاد باحتياجتهم الضرورية ، ولولا التحايل على المعايش على حد تعبير معظم من قابلناهم ، وفى ظل ثقافة الفقر بكل مستوياتها ومتغيراتها ومفرداتها —

لكان من المفترض أن تكون هذه الأسر فى عداد الهالكين فيزيقيا[٢٣] . وفيما يتعلق بالتوزيع النسبى لبنود إنفاق هذه الدخول الضئيلة وشبه الثابتة لدى عينة ، البحث فقد تبين أن الإنفاق على الطعام يأتى فى المرتبة الأولى ، حيث يتجاوز ثلثى إجمالى إنفاق الأسرة الواحدة ، إذ يستحوذ وحده على حوالى ٦٨% من المتوسط العام للدخل الشهرى للأسرة فى عينة البحث. وتجدر الإشارة هنا إلى أنه بالرغم من تعاظم النصيب النسبى للإنفاق على الطعام من إجمالى الدخل الشهرى للأسرة ، إلا أن هذه الأسر لا تحصل على السعرات الحرارية اللازمة والغذاء الجيد ، ولذلك كان طبيعيا أن تتسم هذه الفئات بغلبة أمراض سوء التغذية ومصاحباتها ، بل وتكون فى مواجهة خطر الهلاك ، فضلا عن تقزم النمو الذى يبدو واضحا فى أطفالهم ، والموت المبكر لرجالهم ونسائهم . و يميل توزيع الإنفاق على الطعام للارتفاع فى اتجاه النشويات والبقوليات والخضروات ، مع نسب محدودة للغاية ، فى اتجاه البروتينات الحيوانية والفاكهة ، ويلى ذلك الإنفاق الشهرى على المسكن من إيجار وكهرباء ومياه و وقود ، ويمثل فى مجموعه ما يقرب من ٢٠% من المتوسط العام للدخل الشهرى للأسرة . أما تكاليف العلاج العائلى ، فتمثل ٥,٨% ، والإنفاق على التعليم والدروس الخصوصية يمثل ٣,٧% حيث مازال التعليم لدى عدد محدود للغاية ، من مفردات البحث ، يتم النظر إليه على أنه نوع من الاستثمار المستقبلى ، وهو يجسد تطلعاتهم

الشعبية للانعتاق التاريخى من بنية التخلف ، بكــل مــا تحويه من فقر وغياب للعدل وطغيان وفســاد . ويمثــل الإنفاق على السجائر والدخان نحو ٢,٥% من المتوســط العام لدخل الأسرة فى عينة البحث ، ويشير الاتجاه العام لبنود الإنفاق إلى تدنى النصيب النســبى للإنفــاق علــى التعليم والصحة من إجمالى الإنفاق العام للأسرة فى عينة البحث. وتعيش معظم أسر البحث فــى شــقق ســكنية مؤجرة ، ويمثل هؤلاء ٧٥,٦٨% مــن مجمــوع عينــة البحث ، فى حين يعيش ٢٤,٣٢% فى بيــوت خاصــة مستقلة ، أو مشتركة تملكوها تاريخيًا بحكــم التوريــث ، وبعض هذه البيوت ملكٌ تتقاسمه أكثر من أسرة ، تنتمــى إلى عائلة واحدة وإن كانوا يعيشون حياة مســتقلة داخــل هذه البيوت ، التى يفتقر معظمها لكثيــر مــن المرافــق والشروط الصحية فضلا عن ارتفــاع معــدل التــزاحم داخلها ، والذى يصل إلى ٤أربعة أفــراد فــى الغرفــة الواحدة لدى ٦٧,٧% من مجموع عينــة البحــث. إننــا وبالنظر إلى هذه المؤشرات الإمبيريقية السالفة نجد أنفسنا فى مواجهة عينة من أفقر فقراء الحضر فى مصر ، إنهم أهل الفقر المدقع ، كما أشــرت سابقــًا ، لا يعــانون المجاعة نعم ، لكنهم بدخولهم المتدنية وحرمانهم المتنوع يفتقدون بالفعل القدرة على إشــباع احتيــاجتهم الماديــة والاجتماعية الأساسية ، إلى الحــد الــذى صــار يهــدد حياته . ويتعين علينا بعد هذا الرصــد للواقــع المــادى والمعاش الذى يخبره هؤلاء الفقراء ، أن نتعــرف علــى

رؤيتهم لواقعهم بكل ماينطوى عليه هذا الواقع من فقـــر وطبقيـــة وتمـــايز ، ورؤيـــتهم للســـلطة وممارســـاتهم تجاهها وعندما تتقاطع هذه الرؤى والفهم والممارسات مع تدينهم ، وكيفية تفعيل هذا التدين على صـــعيدى الـــوعى والممارسة كآليات تنتهى بهم إلى إجراء مصالحة مع هذا الواقع ، تسوغ قبوله والرضا به ، كما تنتهى بهم أيضًـــا إلى التحايل والخداع إيثـــارًا للســـلامة وتفاديًـــا للـــبطش والطغيان .

الفصل الثالث

الفقر والطبقية

فى خطاب التدين الشعبى لفقراء الحضر

أ ـ تشخيص الواقع المعاش :

شاع مصطلح الخطاب Discourse فى الكتابات العربية المعاصرة على تنوعها وتباينها ، وأصبح يقترن باستخدامات متعددة لعل أهمها ، فى تقديرى ، أن الخطاب هو المنطوق اللغوى للرؤى والتصورات الشاملة فى أوضاع ممارساتها . وبمعنى آخر هو اللغة فى أوضاع الفعل وحال الممارسة ، وهو يؤدى جملة من الوظائف تقترن بأدوار اجتماعية وسياسية واقتصادية ، كما يتسم الخطاب بدرجة من النسقية أو النظام مقرونة بما يجب أن ينطوى عليه من تجانس لمفاهيمه وتجاوب لمقولاته ، وهو يتأسس على قواعد تلفظ تحدد استجابته للشروط الاجتماعية لتولده ، وهذه القواعد تقوم بتنظيم ما يقال وما يتم فعله ومالا يقال ولا يقدم على فعله ويظل محجوبًا مستورًا خفيا داخل مجالات الممارسة الحياتية المتنوعة . وأمبريقيًا يشير مصطلح خطاب التدين الشعبى لفقراء الحضر إلى دائرة دلالية بعينها ، هى دائرة الإدراكات والفهم والمعارف والرؤى والتصورات والتأويلات والممارسات ، التى يصوغها هؤلاء الفقراء حول واقعهم المعاش عندما يتقاطع كل هذا المحتوى مع دينهم وثقافتهم الشعبية بكل مستويات وأشكال وجودها [٢٤] . وفى البدء كان الوعى الطبقى العفوى والتلقائى لدى الفقراء والذى ينعكس فى مختلف جوانب حياتهم ، فى ثقافتهم الشعبية وتعبيراتهم اليومية ، كما يظهر فى أمثالهم الشعبية ، ومن خلال تفحص هذه الظاهرة وتأملها ندرك أن لدى هؤلاء

الفقراء وعيًا صحيحًا والى حد كبير بأوضاعهم وشقائهم وما يتعرضون له من استغلال ، وبأن أوضاعهم نتاج لتاريخ طويل من القهر والاستبداد وغياب العدل مما أورثهم الفقر . وهم يدركون حجم معاناتهم ، من مصاعب العيش وارتفاع تكلفة بقائهم على قيد الحياة وتضاؤل فرص الحياة وضيقها أمامهم ، فى العمل والدخل والغذاء والمسكن والتعليم والرعاية الصحية ، بل ونكتشف وعيهم بالفروق الطبقية التى تميزهم عن غيرهم ، ووعيهم بنوعية العلاقات القائمة بين طبقات المجتمع ومواقع هذه الطبقات وكيفية التعامل مع هذه العلاقات ، وما هى نتائجها وما الاحتمالات التى يكمن أن تترتب على أية محاولة من جانبهم لتجاوز هذه العلاقات . إن من قابلناهم عبروا وبشكل مذهل بالفعل عن إدراكهم لأسس التميز بين طبقات المجتمع ، وحددوا وعلى وجه الدقة معايير ومحاكات هذا التميز الظاهرة ، وهى الدخل ومستوى المعيشة وحجم الملكية أو الثروة ومصدرها ، بل إنهم يدركون أن العبرة فى التقسيم الطبقى داخل مجتمعهم هى التناقض فى المصالح الرئيسية للطبقات ، والتى يأتى على رأسها المصلحة فى استمرارية النظام الاجتماعى القائم والعمل على دعمه وإعادة إنتاجه ، أو انتقاء تلك المصلحة. ولكن الفقراء وعلى امتداد التاريخ المصرى وبكل عهوده انتبهوا إلى قهر الطغاة من حكامهم وأدركوا ، تاريخيًا مدى ما تتسم به النظم التى تعاقبت على حكمهم من قسوة مفرطة وتعسف واستبداد مطلق

وبطش أعمى يخرق كل قانون أو معيّار ومن ثم وجـدوا أنفسهم فى وضعية العجز شبه المطلق حيال الدولة بكـل مؤسساتها الجبارة ، والتى اعتبروها مسئولة عما آلت إليه أحوالهم . فالدولة ، فى رأيهم ، لم تقم ميزان العدل بـين أبناء الوطن ولم تنجز تنمية حقيقية ، وعجزت عن الوفاء بوظائفها الأساسية كدولة فى تحقيق مطـالبهم وإشـباع احتياجهم ، فى الوقت الذى تعاظم فيه استئسادها عليهم ، إذ سلبتهم حقوقهم وحرياتهم وأقواتهم وهمشتهم وسـحقت قدراتهم وطاقتهم ٠لقد أدركوا بالفعـل أنهـم مسـحوقون عاجزون ولا خيار أمامهم سوى الاستسلام والتكيف مـع الواقع المحيط .

وفى سياق مناخ مفعم باليأس وفقدان الأمل تحـول الفقراء إلى ربهم المتعالى والى أوليائه الصـالحين فـى الأرض ، والى دينهم فحملوا ربهـم مسـئولية فقـرهم وشقائهم وتركوا له مهمة تغيير أحوالهم والقصاص لهـم من ظالميهم ، ووجدوا فى دينهم ما يمكنهم مـن تشـكيل قناعات تجرى مصالحة مع واقع حياتهم ، وتسوغ الفقـر والطبقية والتفاوت وتحقق لهـم قبـول هـذه الأوضـاع والرضا عنها وبها ، وتمنحهم فى الوقت ذاته عزاء ربانيًا إلهيًا عن فقرهم وتدينهم إلى حد اعتبار هـذه الأوضـاع ظواهر إلهية وقدرًا محتومة وتعبيـرًا عـن مشـيئة الله وإرادته النافذة فى خلقة لقد قام الفقراء عن قصد وعمد ، أو بشكل عفوى ، بما يمكن أن نطلق عليـه اصـطلاحًا عملية تمويه أيديولوجى أو عملية تحويل بالمعنى المقصود

فى التحليل النفسى ، لجأوا إلى الله وإلى وسطائه من الأولياء الصالحين وإلى دينهم وتراثهم الشعبى ، وابتدعوا خرقة من الرؤى والتصورات والأنساق المعيارية والممارسات التى تنهض كآليات دفاعية تمكنهم من إجراء المصالحة وتحقيق القبول والرضا بالواقع والظروف الموضوعية المعاشة ، وتعينهم فى الوقت ذاته على مواجهة وحل مشكلاتهم المستعصية وتحقيق آمالهم وأمانيهم ، وتخفف قدر الإمكان من الآلام والمظالم التى يتعرضون لها ، بعد أن ترسخ لديهم يقينًا أنه ليس لهم فى المجتمع ومؤسساته ما يمكنهم من رفع الجور والظلم عنهم وإصلاح أحوالهم .

بداية ، ينطوى الخطاب على تشخيص يكاد يكون دقيقاً وموضوعيًا لأوضاع الفقر وتفاوت أوضاع الناس وتمايزهم الاقتصادى الاجتماعى ، والمصادر والأسباب التى ترد إليها هذه الأوضاع . إن من قابلناهم يعلنون صراحة وبلا أدنى مواربة أنهم " ... ينتمون إلى الفقراء من أهل مصر ... " ، وأن " ...النواحى المادية هى التى تخلى الإنسان فقير أو غنى ، وتخلى واحد فوق والثانى تحت ... " و " ... الانتماء الطبقى تحدده النواحى المادية والدخل والفلوس وملكية المشروعات والأراضى والتجارة والمنصب والوظيفة الكبيرة والنفوذ. وبصراحة أكثر المال لأن إلى معاه قرش أصبح يساوى قرشًا... " ويعتبر " ... جشع بعض المصريين أحد أسباب الفقر وتفاوت أوضاع الناس وتمايزهم وعدم المساواة بينهم .

وكمان لان مفيش حد بيهتم بالفقراء والمحتاجين حتى الحكومة عندنا عاملة ودن من طين وودن من عجين وبسبب سياساتها الاقتصادية تعتبر الحكومة مسئولة بنسبة ٩٥% عن الفقر والتفاوت الاقتصادى والاجتماعى فهى لا تنظر إلا إلى الطبقة الغنية ورجال الاستثمار وتحابى الأغنياء والقادرين وتساعدهم وتقف ضد الفقراء والمحتاجين ... ، لقد تركت الحكومة لصوص البنوك وأصحاب المشروعات الوهمية اللى نهبوا البلد وهربوا... ، الحكومة مسئولة بالفعل عن فقرنا إحنا وغيرنا كتير إحنا بنشتغل كتير وأصبحنا زى اللى مربوطين فى ساقية ومفيش فايدة ،الدولة خلت عيشتنا مرار مع إننا بنفنى عمرنا فى خدمة البلد ولكن لا شئ ينتظرنا سوى الجوع والفقر والحرمان ....

وبفعل السياسات والتوجهات الاقتصادية للحكومة والآثار الناجمة عنها فإنه " ... يمكن ، وأكيد ، وبسهولة ، أن يندفع الفقير المحروم إلى المشاركة فى أعمال عنف ضد الدولة إذا كان شايف أنها مسئولة عن هذا الفقر والحرمان ... ، ولان حاجة الفقير وعدم وجود المال اللازم ليشبع حاجاته وحاجات أولاده تدفعه للقيام بهذه الأعمال والمثل عندنا يقول : " يا واكل قوتى يا ناوى على موتى " ، ويا روح ما بعدك روح ، يعنى بعد الروح فيه إيه تانى الواحد ممكن يخسره ... " .

" ... والفقر ليس فضيلة أبدًا وعمره ما كان حاجة كويسة ومفيش إنسان يتمنى الفقر لأن الفقر وحش ولأن

سيدنا على قال : لو كان الفقر رجلاً لقتلته ... ، والجوع كافر ، والفقر زى الكفر لابد من محاربته والتغلب عليه لأن الفقر وشدة الجوع ممكن تخلى الواحد يكفر بربنا ... وليس صحيحًا أن أبناء الأغنياء حققوا غناهم وثرواتهم لأن عندهم قدرات ومواهب ليست موجودة عند أبناء الفقراء ده كلام غير مضبوط لأن المسألة ليست فى المواهب والقدرات وإنما فى الظروف إلى عاشوا فيها وخلت حظهم كبير فى الدنيا وبسبب ما يتوارثوه عن آبائهم وأجدادهم كما أن البعض له نصيب كبير شوية فى سرقة ونهب ثروات البلد ... " .

ولمواجهة الفقر والتفاوت أو التقليل من حدتها يتعين "... على الدولة أن توفر فرص عمل لكل واحد قادر على العمل علشان تساعده على المعيشة .. ، وأن تقوم الدولة باستصلاح أراضى جديدة وتوزعها وتتوسع فى المشروعات الإنتاجية وبدون معوقات حتى يمكن تشغيل الشباب العاطل وتعطيه الأولوية ... ، وعلى الدولة أن تحكم بالعدل بمعنى إن الفلوس تدخل جيوب إلى محتاجينها وتعطى كل صاحب حق حقه وعليها أن تراقب الأسعار وتوفر الخدمات إلى بيحتاجها الناس فى المساكن والتعليم والمستشفيات ... ، وتقضى على الفساد إللى مالى البلد وتدبح الحرامية الكبار ولصوص البنوك إللى سرقوا أموال الشعب ... ، وتساعد الناس بتحسين المرتبات وزيادة المعاشات والتأمينات الاجتماعية لأنها قليلة ولا تكفى حاجة أصحابها ولا تغير من أوضاعهم ... ،

وبصراحة ووضوح لابد من التغيير الجـذرى والشـامل اللى يحقق إعادة توزيع الدخول والثروات فى مصر ... ، إنها لا تكفى لإشباع احتياجات الناس ومواجهة حرمـانهم لأن حوالى ثلاثة أرباع الشعب المصرى فقراء وبالتالى لا يمكن للزكاة أن تحل مشكلة الفقر ولكن العدل والمسـاواة بين المصريين هوه اللى يحل مشكلة الفقـر عنـدنا ... " والبناء الطبقى فى المجتمع المصـرى حقيقـة يـدركها الفقراء ، ويعون جيدًا أنه لا فكاك لهم من أوضاعهم داخل هذا البناء وبالتالى " ... فمن المستحيل فى هـذا الـزمن الانتقال من طبقة أدنى إلى طبقة أعلى لأن حال البلد الآن سيئة بسبب البطالة وسوء الأحوال الاقتصـادية وعـدم وجود العمل اللي يوفر لقمة العيش للواحد ولأولاده ...... والانتقال والصعود لأعلى مستحيل بسبب الفجوة الكبيـرة والواسعة بين الفقراء والأغنياء في بلـدنا ، ولأن الغنـي بتزيد فلوسه والفقير تزيد حالته خراب أكثر .....

ولكن وعلى الرغم من استحالة الصعود الطبقي إلى أعلى بالنسبة لهم فإن الفقراء يـرون أن ثمـة طـريقين للصعود الطبقي ، الطريق الأول ، " ..... سهل وسـريع ومشواره قصير وهو طريق السلب والنهـب والسـرقة والاختلاس والطرق الغير مشروعة وتجارة الممنوعـات والمخدرات والمشي البطال والحرام علشان يبقى الواحـد غني وعنده عربية وفيللا وكل حاجـة .... ، وعمومـاً عندما يبلغ الفقر والحرمان مداه إلى حد الاختنـاق فمـن الممكن أن يدفع ذلك الإنسان الفقير إلى ارتكـاب جـرائم

زى السرقة والرشوة والدعارة في أحوال كثيـرة ، بـل ممكن يدفع الشباب الفقير إلى الاغتصاب لأنه مش لاقـي يتجوز ويفتح بيت .... ، ولكن الحاصل فـي بلـدنا أن الفقير لما يسرق أو يكون موظف صغير ويأخـذ رشـوة صغيرة بتتقلب البلد عليهم ويفضحوهم ، فـي حـين إن بعض الوزراء والمحافظين وكبارات البلد بينهبوا الملايين وماحدش بيعملهم حاجة ... ، وده بيحصل على الرغم من أنهم أغنياء ومش محتاجين إلا أنهم بينهبوا من منطق إن البحر بيحب الزيادة ... ، ومال سايب ولا صاحب لـه ، ومفيش قناعة عندهم ... ، أن الأغنياء لما يرتكبوا مثـل هذه الجرائم يبقوا ولاد كلب ويستاهلوا قطع اليد والرقبـة كمان ويجب إعدامهم علانية في مكان عام بسبب جشعهم وطمعهم ودناوة نفوسهم وعدم وجود رقيـب ... " أمـا الطريق الثاني للصعود الطبقي لأعلى من وجهـة نظـر المبحوثين فهو " ... طريق طويل وصعب قـوي وهـو طريق العمل والكفاح والتعب بالعرق والشقاء والمجهـود والعلم والعمل... "

وعلى ما يبدو أن كلا الطريقين مغلقان أمام الفقراء الذين قابلناهم ، فالطريق الأول مغلق لأنه وبـرغم مـن فقرهم المدقع آثروا أن يسيروا حيـاتهم وفـق منظومـة أخلاقية صارمة تقيم وزناً للحلال والحـرام والصـواب والخطأ ، كما أنهم آثروا الاستسلام والتكيُف مع أوضاعهم الراهنة ، والطريق الثاني مغلق أيضاً لأنه وعلى تعبيـر أحدهم " ... أنا باشتغل تقريباً ٤٨ ساعة فـي الـ ٢٤

ساعة ومفيش فايدة ومش ملاحقين حتى السفر للخـــارج أصبح مستحيلاً الآن ... "

ب – آليات المصالحة والقبول والرضا :

يدرك الفقراء إذن وبصورة واضحة أوضاع فقرهم وحالات حرمانهم ، وهم يعون وبشكل إيجـــابى أن هـــذه الأوضاع والحالات ظالمة لهم كيفاً وكماً وبالقـــدر نفســـه يعرفون جيدًا أسباب بؤسهم وشقائهم و بالقدر بنفسه أيضًا يدركون جيدًا أنهم مسحوقون عاجزون وليس بأيديهم أية فرصة لتغيير هذه الأوضاع والحالات ،ففى ظل علاقات القهر والتسلط والخضوع فقدوا تمامًا السيطرة على أمور حياتهم ، وخضعوا للقوى القاهرة على تنوعهـــا وتعـــدد مستوياتها " ... لأن محدش يقدر يعمل حاجة وإلا يروح وراء الشمس ... الناس بقت زى الفراخ والخرفان ... ، والدولة قوية ونظام الحكم شديد وإيده طايلة ... ، وإحنـــا مش قد الدولة إلى عايزانا لا نشوف ولا نسمع ولا نـــتكلم ... " ومن ثم لم يعد أمـــام الفقـــراء ســـوى الاســـتكانة والاستسلام للواقع القائم بكل ما يحتويه من قوى قـــاهرة حولتهم بالفعل إلى كائنات عاجزة .

إن الذهنية الشعبية للفقراء لم تجد بداً مـــن قبـــول الواقع ، بكل حقائقه وبكل ما ينطوى عليـــه مـــن علـــل وتناقضات وكان على هذه الذهنيـــة أن تـــنشىء خطـــاب الصبر على المكروه والتسليم بواقع الحال . ووجد الفقراء

فى تراثهم الدينى والشعبى المبـــررات الكثيـــرة ، التـــى تمكنهم من تسويغ الفقر والطبقية وقبولها ، كما وجدوا فيه المدد والعزاء والسلوى وما يمنحهم القدرة على التحمـــل والقناعة والرضا ، وما يقلل لديهم من شأن الحياة الـــدنيا ويحط من قدرها وقيمتها فى أنفسهم بعد أن ضنَّت عليهم . وهى تصورات تدفع إلى ترسيخ اســـتكناناتهم وإجـــراء مصالحة مع واقعهم البائس ، إلى الحد الذى انتهى بهـــم إلى الاعتقاد اليقينى بأنهم خلقوا فقراء معدمين فمن رأيهم أن " ... المتعوس متعوس ولو علقوا على رأسه فـــانوس ... ، وأن هذه مشيئة الله وعليه يعد الفقر والتفاوت أمـــراً مقبولاً .

لقد كان من شأن تقاطع فهمهم لواقعهم مع تدينهم أن ينتج نسقاً معيارياً مغايراً تتناقض كل مفرداته تماماً مـــع إدراكهم الصحيح لهذا الواقع . إنه نسق يحكـــم ويضـــبط ويوجه رؤاهم وسلوكياتهم وتصرفاتهم وحياتهم برمتهـــا ويشكل لديهم قناعات المصـــالحة والقبـــول والانســـجام والرضا بالأوضاع المجحفة بهم ، والتى باتت تهدد حتى مجرد بقائهم على قيد الحياة ، وأن علـــيهم بـــرغم ذلـــك التحلى بالصبر فى مواجهتها .

فى خطاب التدين الشعبى ، للفقراء تتبدل الأســـباب والعلل وتتغير الرؤى والتصورات لتشـــكل معـــاً آليـــات المصالحة والقبول والرضا بالواقع . هنا تنتفـــى تمامـــاً المضامين المادية الموضوعية المحددة والواضحة للفقـــر والغنى وللمتغيرات الواقعية لتخلقها ، والتـــى ســـبق وأن

حددها الفقراء أنفسهم ، بل يلتبس الأمر عليهم إلى حد التناقض الواضح والبين فى تحولهم من تشخيص الفقر كظاهرة موضوعية اقتصادية اجتماعية ، إلى حد اعتباره مثالا دينياً مقدساً. فكلنا فقراء إلى الله وكل المخلوقات فى حاجة إلى الله ... والعبد القوى الأيمان هو العبد الفقير إلى الله ... " وهكذا يتحول الفقر من فقر الممتلكات والحاجات المادية إلى نوع من الفقر المقدس الذى يبتعد تماماً عن الماديات والاهتمامات الدنيوية " ... فالفقر حشمة والعز بهدلة ... ، والقناعة كنز لا يفنى ... ، والقناعة رأس مال الفقير وهى مال وبضاعة ... ، والفقير المفلس يكون فى أمان الله ورعايته ... ، وإن من كرهه ربه سلط عليه بطنه ، وبالتالى فإن إشباع الحاجة وكفاية العيش يعد سخطاً من الله على عبده ... ، والغنى غنى النفس وعفة اللسان والعمل الصالح ومراعاة ربنا فى كل حاجة والفقر والغنى مسائل لا تحسب بالفلوس يعنى ممكن واحد دخله قليل ولا يحمد ربنا أو ربنا يعطيه المال ويعطى معاه المرض ... ، ولكن ممكن واحد فقير ودخله قليل وحامد ربه ، ربنا بيبارك له فيه ويصبح القليل بين يديه كثير وعايش ١٠٠% فى حياته وربنا يبارك له فى أولاده وصحته وينام مرتاح البال ... " .

وليس هناك من أسباب أو مصادر يرد إليها الفقر وتفاوت أوضاع الناس وتمايزهم الاقتصادى الاجتماعى غير"... حكمة ربنا وحده ، هوه سبحانه له حكمة فى أن يكون فى الدنيا فقراء أو أغنياء علشان الحياة تمشى ولأن

ده رزق ومقسمه سيدك وهو له حكمة فى كده ... ، وإجرى يا ابن ادم جرى الوحوش غير رزقك لن تحوش ... ، ومن يعطيه خالقه من يخانقه ... ، وربنا بيعطى الناس بالميزان : إذا أغنيت عبدى يمكن يفترى واللى يستاهل ربنا بيعطيه واللى مايستهلش لا يعطيه ... ، وكل واحد ربنا خصص له رزقه حسب حالته لأن الله مقسم الأرزاق وهو يرزق الطير فى السماء وكل دابة على الأرض على الله رزقها وفى الأرض رزقكم وماتوعدون... ، .... وربنا عمل الناس درجات فوق بعض فيه ناس درجة أولى وناس درجة ثانية وآخرين درجة ثالثة . وده مذكور فى القرآن ، الفقر والغنى والرزق كل ده بأمر الله... " " ... والفقر نعمة من نعم الله وحاجة كويسة طالما أنه من عند ربنا وإحنا نحمد الله على الفقر لأنه سبحانه له حكمة فى كده وهو قادر يجعلنا أغنياء زى الناس الثانية ولكن مانقدرش ندخل فى حكمة ربنا ولا نعترض على إرادته ولان فيه عباد آخرين لا يصلح لهم إلا الفقر لأنهم لو اغتنوا ممكن تتلف أحوالهم أيضًا يعنى ده قدر مكتوب وحرام نقول أن الفقر كفر لأن الرضا بالمقسوم عباده وعدم الرضا اعتراض على إرادة ربنا ولذلك يعتبر التمرد على الفقر والشكوى منه كفرًا واعتراضًا على إرادة الله ومشيئته ده يعتبر افتراء على إرادة الله واعتراض على حكمته ولأن ربنا قسم الأرزاق وانتهى الأمر واللى بيعترض أو يتمرد بإيده إيه يعمله يطلع بقى بسلم لربنا ويقول له عاوز أبقى غنى الرضا بما

قسمه الله للإنسان عبادة والشكوى والاعتراض على كده يبقى كفر بحكم الله . علينا أن نحمده ونرضى بالمقسوم وقادر ربنا يعطينا كما أعطى غيرنا ونعوذ بالله من الكفر بنعمة ربنا فكل اللى يجيبه ربنا كويس ولكن الواحد أحيانًا لما يكون متضايق شوية من قله المال وشدة الحاجة ممكن يقول إن الفقر ولكن لازم نصبر شويه لأنه بعد الضيق يأتى الفرج وبعد العسر يكون اليسر والفقير القانع برزقه هو أحب العباد إلى الله وربنا يجعل القليل فى إيده كثير وهو قنوع بحالته وبأن ده رزقه وعلشان كده هو قريب من الله لأنه قانع بعطاء الله وراضى بقليله وما قسم الله والرضا بالمقسوم عبادة ولأن ربنا بيفرح بالعبد الفقير الراضى بالمقسوم والمقدر والمكتوب له ولأن الفقراء صابرون على قضاء الله واتحرموا من حاجات كثيرة فسيدخلون الجنة قبل الأغنياء ولأن الأغنياء كفاية عليهم أنهم تمتعوا بفلوسهم الكثيرة فى الدنيا وبيحصلوا على كل شئ وأى حاجة نفسهم فيها فى الدنيا . الفقر والغنى إذاً قدر محتوم علينا كتبه الله على العباد ولاحيلة فى الرزق ولا شفاعة فى الموت فالعمر والرزق مكتوب لكل واحد وهوه بيتخلق فى بطن أمه وعمره ٤٠ أربعين يومًا حيث يأمر الله الملك الموكل به أن يكتب عمره كام سنة ويحدد سعادته أو شقاءه فى الدنيا . ولازم نعرف إن الدنيا فانية وزايلة وليس لها قيمة وأن متاع الدنيا قليل وزايل وعلينا الاهتمام بالآخرة والعمل لها والمؤمن القوى الإيمان هو الصابر على الفقر وسوف يجازيه الله بالخير

وسيدخله الجنة لأنه صبر على الفقر وهو ابتلاء مــن الله لذلك علينا كفقراء التحلى بالصبر مهما كانت الأوضـــاع والظروف اللى نعيشها وستكون لنا الجنة فى الآخرة بإذن الله وعوضًا عن الدنيا وعلى الإنسان الفقير الحمد والرضا بما قسم له ولا ينظر إلى الغنى وسيعوضه الله ويكافئـــه بالجنة لأنه صبر على الجوع والفقر والمرض والحرمان وسيكون ثوابه كبير عند ربنا ... ".

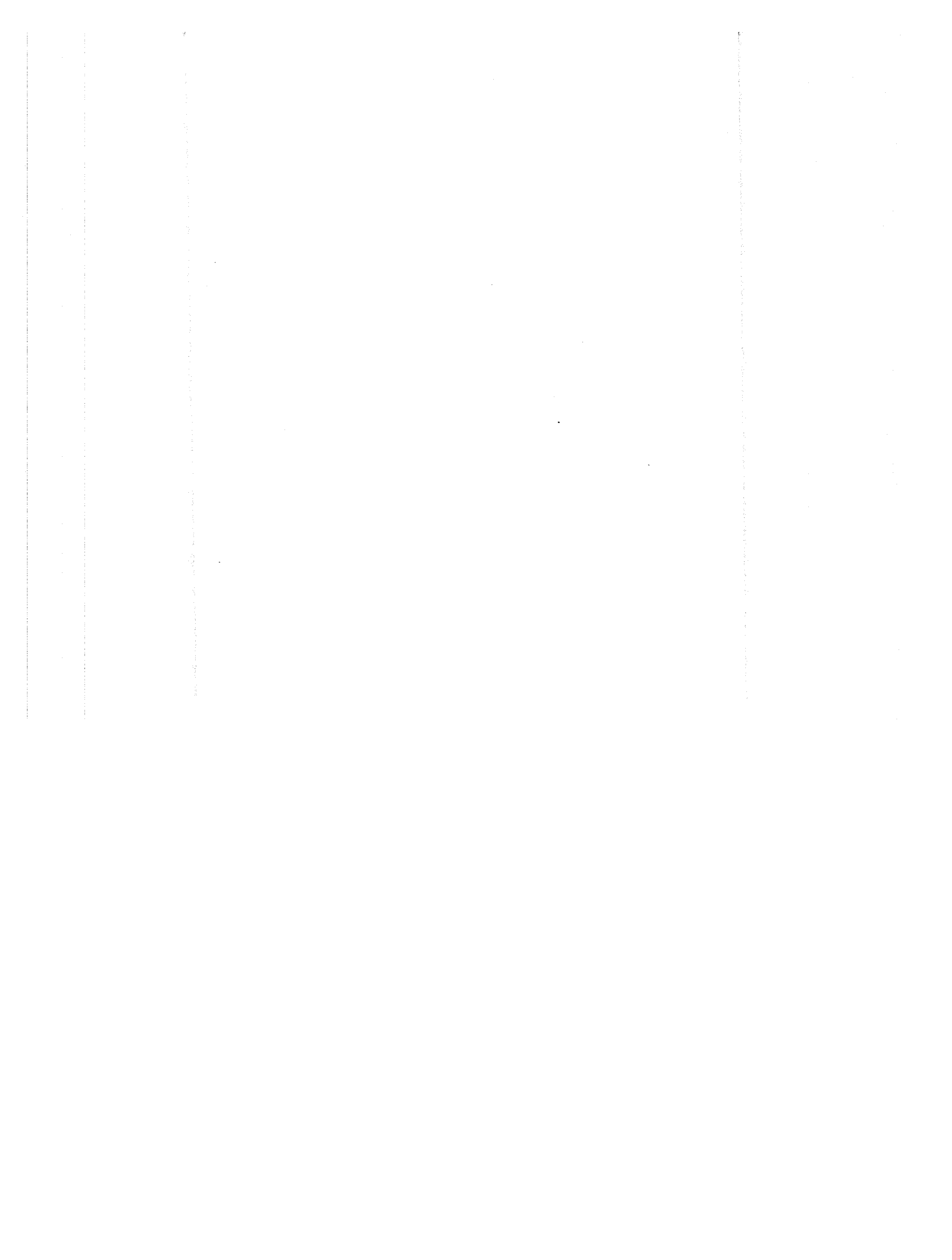
ولقد فضل الله بعض الخلق على بعضـــهم الآخـــر وجعل الناس مراتب ودرجات " ... ليس فى الرزق وحده ولكن فى كل حاجة لأن كل ما فى هذا الكون وكـــل مـــا يحدث فيه يكون بأمر الله ولحكمة لا يعلمها إلا الله وحده وعلشان تعمر الدنيا ويبقى فيها حركة وخير وشـــر . ولا اعتراض على إرادة ربنا وتقسيمه للأرزاق ... ، ربنـــا عايز كده لذلك ربنا عملنا درجات فى الرزق وهو يرزق من يشاء بغير حساب قسم الله الرزق بقدر لكل واحـــد . وهو له حكمته فى أن يوسع على ناس ويضيق على ناس تانية علشان يختبر إيمان كل صنف وفئة هيعملـــوا إيـــه بالفلوس أو يعمل إيه فى حالة الفقر هـــل ســـيكفر بربنـــا بسبب فقره ! ... ، ثم إن الدرجات مطلوبة واللى يـــبص فوق رقبته توجعه ولأن لو أنا غنى وأنـــت غنـــى مـــش هتلاقى ناس تشتغل ومش هيبقى فى ســـباك وميكـــانيكى وحنطورجى... ، ولو كانت كل الناس أغنياء ماكنش يبقى فيه باشا وغفير... ، يعنى انت عاوز تبقى أمير وأنا أمير فمين يسوق الحمير ؟! ... ، لازم يكون فيه طبقات بـــين

الناس ويكون فيه أغنياء وفقراء دى سنة الحيـاة وربنـا عمل كده علشان يمتحن الناس فى معيشتهم فـى فقـرهم وغناهم ... ، دى حكمة ربنا وقدره علشان لا يكون الناس متساويين فى كل شيء والحياة تمشى ويكون فى تعـاون بين الناس فى المنافع والناس تساعد بعضها فى المعيشـة والعمل والدنيا تعمر وعجلة الحياة تدور ... ، وطالما إن الفقر والغنى قدر الله المحتوم فى عباده وطالما كان تفاوت أوضاع العباد الطبقية تعبيـراً عـن إرادة الله ومشـيئته وحكمته فإن انتقال المرء من طبقة فقيرة إلى طبقة غنيـة قد يكون مستحيلاً والاستحالة تأتى من كون " ... الله قـد خلق الغنى غنى والفقير فقير كل واحد فى درجته ومقامه لا يغادرها ... " ولكن الانتقال والصعود الطبقى لأعلى قد يكون ممكناً أيضاً بـرغم اسـتحالته لأنـه " ... مفـيش مستحيل أمام إرادة ربنا لأنه الرزاق ويكون الرزق عطية من عند الله وربنا يبعث الرزق من أوسع الأبـواب ... " وسبيل الفقراء إلى الحصول على عطايا ربهـم ورزقـه الواسع هو " الإخلاص فى العبادة لله والتمسك بالإيمـان القوى المخلص لله والتحلى بالصبر ، ووقتها سـيفك الله أزمة كل عبد صابر قريب منه وبيراعى ضميره وبيؤدى كل الفروض الواجبة عليه... "ولذلك فإن الفقير الذى يقدم على ارتكاب جريمة بوازع من فقره يعتبـر فـى هـذه الحالة"... غير مؤمن لأنه غير مقتنع بحكمة ربنا وقسمته للأرزاق بين الناس... ، وحتى إذا ما أقدم على ارتكـاب أية أعمال عنف ضد الدولة بسبب تصوره أنها مسـئولة

عن فقره يبقى معترض على إرادة ربنا ويريد أن يخرب البلد . أما الأغنياء إذا ما ارتكبوا جرائم سرقة واختلاس ورشوة ... ، يبقوا كفار وفجار وجاحدين لنعمة ربنا وإن إيمانهم قليل وبعدوا عن الله واستهتروا بأوامره ... " .

ثمة مفارقة إذن يثيرها محتوى خطاب التدين الشعبي للفقراء بشأن الفقر والطبقية فمعروف نظرياً على الأقل أنه كلما زادت القدرة على إدراك وفهم الظلم الاقتصادى والأزمة الاقتصادية الاجتماعية ، التى تميز بها جماعات طبقية بعينها داخل المجتمع ، كلما زادت إمكانية انخراط وانغماس هذه الجماعات الطبقية ، فى الفعاليات السياسية المقاومة لسياسات نظام الحكم ، الذى يعد مسئولاً بحكم اختياراته وتوجهاته وسياساته عن الظلم وخلق الأزمة وتفاقمها . ذلك أن نضبح الوعى بتناقض المصالح ، يدفع بالضرورة إلى المقاومة والتمرد والثورة ، ولكن الفقراء هنا لديهم قصة مغايرة . فبرغم إدراكهم لمصالحهم الحقيقية وبتناقض هذه المصالح مع مصالح غيرهم ، وبرغم وعيهم بشقائهم وعلل هذا الشقاء ومصادره ، إلا أنهم أنشأوا خطاب الصبر على المكروه ؛ لأنهم أدركوا أن النضال الطبقى ضد هذا المكروه لن يكون مجديًا ، بل سيجلب لهم المزيد من القمع والقهر ويضاعف معاناتهم . إنهم وبرغم أحلامهم بالعدل والحرية والانعتاق من بؤسهم وفقرهم ، إلا أنك تلمح لديهم حالة فريدة من انكسار الروح وضعف الهمة وفتورها وخور إرادتهم وانكسارها أيضا ، وتسيطر عليهم بالكامل روح

انهزامية ويستولى عليهم ، بل يتملكهم تمامًا وبشكل طاغ الإحساس بالهزيمة الداخلية ، فهـم أشـبه بـالمهزومين المحاصرين بكل لحظات الضعف والخوف وخيبة الأمل ، فآمالهم محبطة موعودة بكل غلظة وقسوة واقعهـم ، ولا يجدون من مفر أمامهم سوى الاستسـلام المطلـق لهـذا الواقع وما يتوهمون أنه قدر قد كتبه الله علـيهم . ومـع العلم بأنهم ليس لديهم ما يخسرونه إذا مـا أرادوا العـدل والحرية ، ولكن على مـا يبـدو أن القنـوط والإحبـاط واليأس قد تسلل ، ثم تغلغل فى كيانهم إلى حد أن سـكن قلوبهم وعقولهم وصاروا يجزمون وبيقين قـاطع بأنـه "مفيش فايدة" ، أنهم لايأملون فى خلاص أو انعتاق ، لقد آثروا السلامة مع الدونية والتهمـيش ، والصـبر علـى المكروه ومصالحته والرضا بما قسُم لهم .



الفصل الرابع
السلطة السياسية
فى خطاب التدين الشعبى لفقراء الحضر



ينطوى خطاب التدين الشعبى لفقراء الحضر على فهم خاص للسلطة السياسية والحاكم ، كما يطرح هذا الفهم بالضرورة ممارسات خاصة إزاءها . ولقد كان من شأن تقاطع فهم الفقراء وممارستهم تجاه السلطة والحاكم مع تدينهم ، أن يقدم لنا فهمًا يتسم إلى حد كبير بالتعقيد والتركيب الشديد. ويتأسس هذا الفهم على قاعدة المصلحة/ الأمان ، وهى فى تقديرى قاعدة تناقضية وغير مستقرة تماماً . وكان من شأن هذا النوع من الفهم أن يفرز كيفيات متنوعة ومتباينة بل ومتناقضة فى الوقت ذاته من السلوك الشعبى للفقراء تجاه هذه السلطة . وهذه الكيفيات السلوكية المتنوعة والمتباينة والمتناقضة ، تتسم فى مجموعها بغلبة الطابع البراجماتى النفعى الواضح عليها ، فهى تجمع فى آن واحد بين عبادة السلطة وتقديسها، واستهجان ممارستها ونعتها بأبشع الصفات وبين إمكانية الخروج عليها، كما تجمع بين خشية السلطة والخوف منها وتجنبها وبين محاولة الاستفادة منها بل والسخرية منها والتحايل عليها وخداعها.

وإذا كان من الصحيح تاريخيًا أن المصريين قد أقاموا أقدم حضارات الدنيا ، فإنه من الصحيح أيضًا أنهم أول ديكتاتوريتها ، سجدوا لها وقدسوا حكوماتهم مهما كان الذى يتربع على عرشها ، وتلذذوا بطغيان حكامهم الذين امتهنوا إرادتهم وفرضوا عليهم الذل والخضوع ، إلا أنهم وللمفارقة ، يبلغ بهم الحزن مداه إذا ما فقدوا حاكمهم الطاغية .

وبالرغم من هذه الوضعية إلا أنك تلمح قدرًا كبيرًا من الدعة الآمنة والمستقرة على وجوه المصريين المغلوبين على أمرهم ، وتدرك في الوقت ذاته تعاظم إحساسهم بالخوف من السلطة وبطشها ، وبالقدر نفسه أيضًا إحساسهم بالفزع الذي يملأ قلوبهم على لقمة العيش. أحاسيس تسيطر عليهم وتتسيد كلّ مواقف حياتهم ، إلى حد أن صارت ركنًا ركينًا في بناء شخصياتهم منذ الصغر . أذكر أن أمي كانت ، ولاتزال حتى اللحظة تردد على مسامعي دومًا ، عندما استشعرت بدايات التمرد والرفض والاحتجاج ، في بداية عهدي بالشباب وفورته وثورته : " ... ملناش دعوة يا ابني ... صبعي في عين اللى في السوق ... هوه أنا لوحدي اللي في السوق ؟! ... إمشي جنب الحيط ... وامشي عدل يحتار عدوك فيك...، ويا بخت مين بات مغلوب ولا باتشي غالب ... ، ونتعلم أحسن ونشوف مستقبلنا ... ، وناخد بالنا من أكل عيشنا ... ، وربي عيالك أحسن لك انت مش هتصلح الكون ... ، واحنا مش قد الحكومة ... ، " . وما إلى ذلك من كل أبجديات وقيم الخوف والجبن والسلبية والطاعة والعجز و التقاعس ، والصبر والسكينة والمواءمة التي تشبع الأمهات في مصر أبناءهن عليها منذ نعومة أظافرهم ، إلى الحد الذي يدفع إلى تقرير أنها قد تسربت إلى كامل خلاياهم ، وكل بنائهم النفسي خلال عمليات التنشئة والتطبيع الاجتماعي ، التي خضعوا لها منذ ولادتهم ،

وكرستها وأعادت إنتاجها مؤسسات أجهزة الدولة الأيديولوجية الدينية والتعليمية والإعلامية ، بحيث تجذرت في حياة المصريين جميعهم وشكلت تراثا متراكمًا من الخوف المختزن في وعيهم ووجدانهم ، خوف من الحاكم ومن السلطة الحكومية ، وحتى من زي العسكر والموظف الميري وإن كان في المستويات الوظيفية الأدنى ، إلى الحد الذي صار معه خوف المصريين من السلطة وكأن هذه السلطة " كلب وسد الطريق " على حد تعبير المبدع صلاح جاهين ، سد الطريق أمامهم على كل أمل للإفلات من قبضة الطغيان بكل سوءاته ومخازيه .

وتسيطر على عقول المصريين ونفوسهم شمولية منذ العهود السحيقة ، ويتم توارثها ، تبدأ من مؤسسات التنشئة الاجتماعية الرسمية وغير الرسمية ، وصولاً إلى الهياكل السياسية ، وحتى الهياكل الدينية ، وهذه المؤسسات في مجموعها تمارس القهر والإكراه على جموع المصريين وتبث في نفوسهم حملات الإذعان ، وتدربهم على طقوس الخنوع والخضوع . فغير مسموح بأن يناقش أحد الأب البطريرك كبير العائلة المسيطر ، أو الأستاذ صاحب السلطة في المدرسة والجامعة، أو رئيس الدولة ، أو حتى رجل الدين . فمطلوب من المصريين جميعهم السمع والطاعة ، وأن يستسلموا صاغرين لكل سلطان وإلا اعتبروا من العصاة الفوضويين المتمردين أو الكفرة الملحدين .

وفي تقديرى ، أنه كان مــن شــأن الاســتمرارية الفرعونية فى هيكل وبناء الحضارة المصرية ، ثم الإسلام بوصفه ديانة أن يكرس هذا الفهم للسلطة والحــاكم لــدى المصريين . فالفرعونية تكــاد تكــون مأســاة المجتمــع المصرى السياسية المستمرة وهى كلمة تعسة ، على حــد تعبير جمال حمدان (٢٥) ، إنها علم دال علــى الطغيــان المصرى البغيض و المســتمر عبــر مراحــل التــاريخ المصرى بكل عهوده ، فعلاقة الحــاكم والمحكــومين ، كانت ولا تزال علاقة مقت وقهــر ، وإكــراه وكــره ، واستبداد و حقد، والعلاقة بين الحكومة والشعب قوامهــا الريبة والعداوة الصامتة ، فالحــاكم عــدو للمحكــوم ، والسلطة المطلقة تتحول فى غيبة الرقابة والمسآلة الشعبية إلى حكم العصابة . وذروة المأساة هى أن مصر ظلــت أبدًا هى حاكمها ، وحاكمها هو عادة أكبر أعدائها وشــر أبنائها ، يتصرف كما لو كان صاحب البلد ومالكها ، وهو ولى النعم ، الوصى على الشــعب القاصــر . ووظيفــة الحاكم أن يحكم الشعب وعلى الشعب الطاعة . والمصرى الوطنى الصالح الطيب هو فى عرف الحاكم المصــرى ، التابع الخاضع . وكأن المصرى لا يكون مصــريًا إلا إذا كان عبدًا أو كاد أن يكون كذلك . ينظر الحاكم إلى مصر وكأنها ضيعته أو عزبته الخاصة ، وإلى الشعب بحسبانه قطيع الخراف ، وأحسن حكام مصر هو من يتبنى فكــرة الراعى الصالح و الرعية التوابع فى سياق من العلاقــات

الأبوية العقيمة والعتيقة . يستيقظ المصريون من نـــومهم صباحًا ، وعبر تاريخهم الطويل ، لينظروا إلـــى مقـــام حاكمهم العالى فيرونه مستقرا فـــوق رءوســـهم وفـــوق عرشه ، فيحمدون الله لأنه قد أبقاه لهـــم حاكمًـــا ملكــــًا رئيسًا سندًا وحكيمًا وقائدًا لمسيرتهم ، وبطلا ونعمة إلهية مهداة إلى شعب مصر المبارك . لذلك كان ، المصريون عبيد الفرعون ، وعبيد السلطان ، وعبيد الملك ، وعبيـــد رئيس الدولة والحاكم/وفى تصورى أنه ليست ثمة مبالغة إذا ما قررنا أننا بصدد فرعونية قديمة ومحدثـــة وتتســـم بالديمومة ، ومملوكية جديدة فى أردية ومؤسسات تنكرية عصرية تصل إلى حد المســـخ . فالحـــاكم هـــو الملـــك الجمهورى ، وهو الفرعون الجالس على كرسى الحكـــم طيلة حياته ، ومن المثير للدهشة أنه جاء بإرادة الشعب ، حتى يقضى الله أمرًا كان مفعـــولا . ومـــن شـــأن هـــذه الظاهرة أن تدفع إلى تقرير أن جوهر الحكـــم ومحتـــواه المستمر عبر عهود التـــاريخ المصـــرى هـــو الطغيـــان الفرعونى والحكم المطلق والشمولى فى المبتدأ والمنتهى . عهود متعاقبة من القهر والكبت والقمع ، ووعد تام لأيـــة معارضة ، إن وجدت ، تحولت معها الجماهير المصرية إلى ما يشبه القطيع السياسى ، الذى تتم قولبته مرة فـــى تحالف قوى الشعب العاملة"... ويعيش أهل بلدى وبيـــنهم مفيش تعارف يخلى التحالف يعيش .. تعيش كل طايفـــة من التانية خايفة .." . ومرة فى المنابر والأحزاب الشكلية

التى نشأ أغلبها بقرار من الفرعون كبير العائلة المصرية الذى تجب له كل الطاعة . ومن يعارضه من الأراذل ويختلف معه هو خائن ، جاحد ، حاقد يتعين ردعه عبر "ديموقراطية الأنياب والأظافر ... ، أو فرمه بمفرمة الديموقراطية أيضا ، " محض شكل ديموقراطي فارغ بلا مضمون ، أو محتوى ؛ لأنه في كنف الفرعون العظيم ، وعن يمين ويسار حكمه ، الأمر الذى أصاب المصريين المعاصرين بحالة عقم سياسي ، وبحيث لم يعد بعدها لأى منهم إلا الحق في أن يقول فقط نعم .. نعم .. ، وحتى "الجنين في بطن أمه يقول نعم للسيد الرئيس .. "على تعبير إحدى لافتات الدعية الانتخابية في حي السيدة زينب بالقاهرة خلال انتخابات الرئاسة في خريف عام ٢٠٠٥ . يرى المصريون حاكمهم وكأنه سيدهم الأعلي ، له كل التقديس والطاعة واجبة له ، فهو يملك كل الصلاحيات ، مطلق اليد ، كامل السلطة ، فكل السلطات رهن إشارته وفي قبضته حتي في السلطة التشريعية "يضغط الرئيس علي الزر فيخرج التشريع المراد فورًا ...". الرئيس في عرف المصريين و في أذهانهم كلي القدرة والجبروت ، السياسة حكر عليه ولا شريك له ولا منافس . هو المانح والمانع ، والواهب العاطي ، الزعيم الملهم ، كبير العائلة ، بطل الحرب والسلام ، صاحب الضربة الأولي ، ربان السفينة الحكيم المدرك والعالم وحده بمصلحة هذا الوطن لا يناقشه أحد ، لا يسأل عما يفعل والرعية من

شعبه يسألون عما يفعلون ، علـــي حـــد تعبيـــر الشـــيخ الشعراوى في حديثه للرئيس السادات بعد أحداث ١٨و١٩ يناير من عام ١٩٧٧وعلي الرعيـــة الإذعـــان لإرادتـــه والهتاف باسمه ودوام حياته ونظام حكمه ؛ لأنـــه وحـــده يمنحهم كل شيء ، ولا يوجد في عرف التعامـــل معـــه حقوق لهذا الشعب ، ولا حق للمواطن ، وإنمـــا الـــرئيس الأعلي في مقابل الأمة بكاملها أو رعيته التي تقف علـــي أطراف أصابعها يطلبون منه المنح والعفو عمن تجاســـر وطالت قامته ، أو طال لسانه مطالبًا بحق من حقوق الأمة "... جئنا نعرض عليك مطالب الجيش والأمـــة ... أيـــة مطالب ؟ لا مطالب لكم... لستم إلا عبيد إحساناتنا...".

ويقدم الإسلام تصورًا رأســـيًا للكـــون يضـــع الله والسلطة على رأس العالم في تصور هرمي ، يصعب فيه أحيانـــًا التفرقة بين الله والسلطة ، وإلى الحد الذي يعبـــد فيه المصريون الله بتملق السلطة ، ويعبدون السلطة فـــي شخص الله ، وبالتالي يصبح كل شيء في المجتمع يفعـــل من أعلى إلى أسفل ، من الله إلى الحاكم الرئيس ومنه إلى العباد والرعايا ، الذين يتعين عليهم السمع والطاعة للواحد القهار في الدين والسلطة أو الحاكم ، وكما يتقرب العبـــاد إلى الله فإن عليهم التقرب إلى السلطة أو الحـــاكم ، إلـــى الحد الذي تضيق فيه المسافة بين الإله والسلطة ، إلى حد التماثل بينهما ، فيصبح " حاكمك ربـــك " ، وأن طاعـــة الحاكم من طاعة الله ورسوله ، والطاعة للحاكم واجبة ،

حتى لا نقع في الغلط.. ، والسلطة من الله ويجب طاعتها والخضوع لها والامتثال لأوامرها ... ، وعلينا طاعة أوامر الحاكم ونمشي وراه لأنه ودولته بيمثلوا ربنا في الأرض ... ، فربنا بيأمر الحاكم والحاكم بيأمرنا يعني كل شيء بأمر الله وأمر الحاكم ... ، ويتأسس على ذلك أن الخروج عن طاعة الحاكم وأولى الأمر يكون مسكونًا في خطاب التدين الشعبي للفقراء بالخوف من الفتنة ، وتفكك وحدة الأمة وضياع لقمة العيش وخسارة وضياع روح النبي آدم ، ولأن الذهنية الشعبية للفقراء لا تتصور أحدا يمكن أن يعارض الحاكم لأنه لا أحّد منهم يمكن أن يقول " للغول عينك حمرة " والحاكم في عرفهم أيضًا غول ... ، وشرطته وجيشه وقانونه هم عينه الحمراء . ولكن هذا الخضوع لم يمنع الفقراء من استهجان ما تمارسه السلطة تجاههم من قهر متواصل .. ، " قالوا يا فرعون إيه فرعنك

قال : مالقيتش حد يردني ..." ويعبر الفقراء عن استهجانهم للسلطة بلعن مؤسساتها الأكثر عنفًا وتأثيرًا في حياتهم وأعني بالتحديد المؤسسات الاقتصادية ومؤسسة القمع المادي أى الشرطة ، والمؤسسة الدينية الرسمية . وهم يطلقون على موظفي هذه المؤسسات أقبح سباب يملكونه " فابن الحرام يطلع ياقواس يا مكاسى ..." أى أن يكون حامل قوس ويعنون رجل الشرطة ، أو

جابى ضرائب وهما مهنتان لا يخلو من يمارسهما ، من ظلم الناس وإعانة الظلمة عليهم .

وتعي الذهنية الشعبية للفقراء أيضًا وبالقدر نفسه من الدقة ، الدور الذي تقوم به المؤسسة الدينية الرسمية وفقهاؤها ، في تبرير ممارسات نظام الحكم المتسلط عليهم ، وإكسابه شرعية وقداسة دينية مزعومة ، بل ويدركون تمامًا تورط ممثلي هذه المؤسسة حتى ذقونهم في وحل الواقع الاجتماعي ، ... المشايخ ورجال الدين اللي بيقولو لنا إن طاعة الحاكم واجبة وإن ظلم حتى لا يحدث انقسام أو اضطراب في أحوال الأمة والناس ...

دول مش مشايخ ، إنهم منافقين وخايفين من الحاكم وبيحللوا وظائفهم وبيحافظوا على كراسيهم ورواتبهم ومعندهمش ضمير دول مشايخ عمم يعني أونطة .كما ترسم الأمثال الشعبية الكثير من الصور الكاريكاتورية لفقهاء السلطان ، تعبر بدقة عن حقيقتهم ..." قالو للشيخ يا سيدنا الحيطة بال عليها كلب ، قال تنهدم سبع مرات وتتبني سبع مرات ، قالو دي الحيطة اللى بينا وبينك فقال لهم أقل الماء يطهرها ...." ومثل هؤلاء الفقهاء " يفتون على الإبرة ويبلعون المدرة " كما أن الذهنية الشعبية للفقراء لا تنخدع بالمظهر الخارجي لمثل هؤلاء الفقهاء وأمثالهم من المغالين في التدين " لأن أمثالهم "... ضلالي وعامل إمام ... ، وهو كالقط يسبح ويسرق ... ، ويصلى الفرض وينقب أرض ... دول متخفيين وراء مظاهر

التدين بذقونهم ولبسهم ... " ويـــدرك الفقــراء غشــموية السلطة وبطشها ، ومن ثم ابتدعوا تاريخيًا آليات متباينــة للتعامل مع هذه السلطة وممثليها ، وهى آليات تجمع بين تجنب السلطة وخشيتها ، والنيل منهــا بأســلوب الرمــز والسخرية باعتباره نوعًا من التمرد البديل ، من ناحية ، والتحايل عليها وخداعها والتهرب منها من ناحية أخــرى ,بل وتطرح إمكانية الخروج والتمرد والثورة عليها إذا ما تعاظم فسادها وظلمها لهم . ولا نبالغ إذا ما قررنــا أن هذه الآليات قد أصبحت ، تاريخيًا ، جزءًا من التركيــب العضوى للنسق الاجتماعى المصرى وتفاعلاتــه . ففــى مخزون المصريين الحضارى بعامــة والفئــات الفقيــرة والضعيفة منهم على وجه الخصوص ، خوف وحــذر لا نهاية لهما من السلطة ، يخشى الفقراء الســلطة " ... لأن سيف السلطان طويل ... " وكل حاجة تحت إيده ... ,لأنه قادر وإيده طايلة يقدر يجينى وأنا فــى حضــن مراتــى ويستولى على كل شىء فى البلد دون اعتراض من أحــد ..." ولأن السلطان سلطان فعلينا الطاعة " . ويعتبر قبول القهر ضرورة لا مفر منها ومن ثم "... فضرب الحــاكم شرف لنا ..." ولأنه غصب عننا رضينا أم لــم نــرض هاننضرب ..." وعليه يكون "... خــد الشــعب مــداس ..."ولازم نعرف أن الحيطان ليها ودان ..." وأن الخوف يربى الخوف ... " وعلينا أن نطاطى علشان تفــوت ..." وطاعة الواحد للسانه ندامة ، ولولاك يالسانى وما انسكيت

على قفايا ..." ولدرء بطش الحاكم ..."علينا دائمًا الطاعة والمسايسة وكسب وده علشان لقمة العيش ..." هنا يجـد الفقراء المسحقون أنفسهم فى مواجهة السلطة الجائرة بكل آ ليتها ومؤسساتها ، وهم مفتقدون تمامًا لمن يدافع عـنهم ويعينهم ويحشدهم ، ويكتل إراداتهم ، وينظمهم ويحركهم فى مشهد صراعى ضد هذه السلطة ، حتى بعد أن أصبح الشيخ الفقى حامل كلام الله شريكـًا للسلطة فـى نهـبهم وفى تبرير ظلمها لهم .

... فالناس من حقهم الثورة على حكمامهم وخلعهم إذا لم يلتزموا بمصالحهم وإذا كانوا ظلمة ، أو ارتكبـوا أفعالا تضر بمصلحة الوطن ، أو خانوا البلد ، أو نهبـوا أموال الشعب واستولوا على ثرواتهم لحسـاب أنفسـهم وأسرهم وحاشيتهم ... " وإذ اشتدت حدة الفقر وتم تجاهل حقوق الفقراء ، ..." لكن الشعب فقير وغلبان ولا يملـك حتى قوته وأكله يبقى إزاى يعمل ثورة على حكامه ؟... ، دى مسألة صعبة أوى فى بلادنا ... ، الواحد أحسن حاجة له يعيش جنب الحيط علشان يعرف يربى أولاده من غير مشاكل ..." ، على الاهتمام بأولادى وبيتى وخلاص ...". لا مفر إذن من المناورة والخداع لتحاشى بطش السـلطة وإرضاء المتسلط وبالتالى لا مانع لدى الفقراء أبدا مـن "... الرقص للقرد فى دولته ..." واللى ماتقدر توافقه نافقه ..." إن الخوف من بطش السلطة وإدراك أن الدخول فى معركة حاسمة معها قد تنتهى بإبادتهم ، دفعهم إلى مهادنة

هذه السلطة والتكيف معها بل والتواطؤ مع سياستها وتوجهاتها ، بدلا من التصدى لها لتغيير واقع حياتهم " ... ومفيش غير الواسطة لقضاء مصالحنا فى دواوين ومصالح الحكومة ...، المهم تكون الواسطة كبيرة شوية كعضو مجلس الشعب مثلا ، أو حد صاحب نفوذ كبير ، أو ندفع رشوة على قدنا ودى تبدأ من سيجارة وانت طالع كده ..." أوهدية ..." وعمومًا لازم الواحد يكون له ضهر علشان ماينضربش على بطنه علشان يخلص مصالحه ...وإذا فشل فى كل ده مفيش غير الله نشتكى له لأنه فوق الكل و لانه قادر يرفع الظلم عنا ويعطينا حقنا وينتقم من الظالم ..." ويبلغ التناقص مداه فى فهم الفقراء للسلطة وممارستهم إزاءها فمن عبادة السلطة وتقديسها ، الى استهجان ممارستها تجاههم ، وصولا إلى الخوف من بطش السلطة وخشيتها ، ومن ثم تجنبها ومهادنتها ؛ لنصل فى النهاية لأن يصبح موقف الفقراء من هذه السلطة موزعا بين محاولة الاستفادة منها وبين السخرية ، منها ، فالفقراء يسعون جاهدين للاستفادة من السلطة لانها"... إن فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه ..." حتى لو اضطريت إنك تغير ملتك لأنك إن دخلت بلد تعبد العجل فعليك أن تحش و ترمى له ..."

ويسخر الفقراء من السلطة برغم خضوعهم لها وبالتالى ".... فالسلطان يمكن مع هيبته أن يتشتم فى غيبته ..." ويعنى هذا التشهير الخفى بالحاكم . وهناك كم

هائل من النكات التى يطلقها المصريون فى عمـــومهم ، وبشكل يومى ، على حكامهم ، يسخرون منهم حتى فـــى أحلك عهود الاستبداد والقهر والقمع ، ولكن وعلى ما يبدو بالفعل أن شر البلية ما يضحك فالنكات السياســـية التـــى ذكرها لنا المبحوثون ، تعبر عن حقائق مؤلمـــة وقاتمـــة وقاسية بالفعل ، فى واقع حياتنا نحن المصريين . ولكـــن فى المحصلة النهائية لم تتغير الحقائق التى سخروا منها ، ولا حياتهم أصبحت أفضل ، كل ما هنالك أنهم عـــالجوا أسقام الفقر والبؤس والاستبداد والطغيان والفساد وغيـــاب العدل ، بدواء اسمه النكتة ، عليها أن تخفف عنهم قســـوة الواقع وأزماته المتفاقمة ، ويتحايلون عن طريقها علـــى آليات المراقبة والقمع المعنوى والمادى ، الذى تمارســـه أجهزة الدولة الأيديولوجية والقمعيـــة ، ومتحديـــة لهـــذه الأجهزة ومتجاوزة لما تمارسه مـــن إجـــراءات المنـــع والرقابة دون أن تلحقهم أية إدانة (٢٦) .



الفصل الخامس

التدين الشعبى لفقراء الحضر

استخلاصات نظرية



فى تقديرى أن الفقر فى أعمق معانيه هــو تــرك الدنيا تمضى على ما هى عليه ، تحدد الناس وتحــدهم أو تفنيهم وتهدهم ، تشكل حياتهم وميولهم وفكرهم ، دونمــا انتباه لما يحوزونه من قدرات وطاقات وملكات إنسانية لا حد لها على التعليم والإبداع والتحرر والارتقاء الوجدانى والأخلاقى والعقلى والجسمانى ، أو التوظيف الفعلى الحر لهذه القدرات والطاقات والملكات . وبهذا المعنى يصادر الفقر كل الإمكانات المتاحة لسعادة البشر وبهجتهم ، فــى ظل حياة تليق بالإنسان بوصفه إنسانـًا والتدين بالمعانى التى وجدناها فى هذا البحث يصبح على الضد من سعادة البشر وبهجتهم ، وتحقيق إنسانيتهم إذا ما كان يصـــالحهم مع الفقر والحرمان والقهر والاستبداد ، ويكــرس هــذه الأوضاع ويوفر الغطاء الأيديولوجى لإعــادة إنتاجهــا ، ويعوقهم عن تغيير ما هو قائم ، عبر خطابــه المســكون باليأس والاستسلام . يوفر التدين للفقــراء كــل العــون والسلوى والمواساة والمصالحة مع واقعهم البائس ، ممــا يجعلهم قادرين على تحمل خيبة الأمل أو الإحباط والأسى واليأس ، من القيم والأهداف الدنيوية ، التــى حرمــوا ، منها والتدين بتأكيده على تجاوز الوضع الدنيوى الــراهن الزائل ، ووجود حياة أخروية أبدية خالدة ، ستكون لهــم وربما ستكون أهم من حياتهم الدنيا الراهنة إنمــا يــوفر للفقراء وضعًا يتسم بالأمل الذى يسهم بدوره فى إجــراء المصالحة والرضا والقبول بينهم وبين واقعهــم بكــل ، سوءاته ، فهذا الواقع يعد فى هذه الحالة مرحلة انتقاليــة

إلى النعيم وجنات الخلد التى وبشروا بها ووعَدوا أنفسهم بالفوز بها ، بحسب تأويلهم وفهمهم لـدينهم ، وإن كـان الحس الشعبى للفقراء يتشكك حتى مـن هـذه الخاتمـة لحياتهم " لأن المتعوس متعوس ولو علقوا علـى راسـه فانوس ... " ولن ينال الفقراء شيئاً حتى فى الآخـرة لأن الفقير "... المغلوب مغلوب وفى الآخرة ينضرب بالطوب ... "

نحن أذن بصدد واحد من الأشكال المهمة لاستخدام التدين وتوظيفة فى سياق الحيـاة الاجتماعيـة ، وهـو استعمال التدين كآلية للمصالحة مع الواقع القائم ، وحيث لجأت الطبقات الفقيرة المعدمة والعاجزة أيضًا ، وفى ظل شروط بعينها ، ترتبط بعجزها وخوفها مما قد يفعله فيهم الجلادون ، حراس النظام وسدنته ، من قمـع ووحشـية تضاعف بؤسهم ، لجأت الى التدين تسـتخدمه بقصـد أو بدون قصد كأداة مصالحة مع واقعهم البائس ، وتسـوغ قبول الوضع الراهن مهما كان جائرًا ومسـتبدًا وقـاهرًا لهم . إن الأفكار والتصورات والممارسات التى احتواهـا خطاب التدين الشعبى للفقراء ، تعبر فى مجموعها عـن الشعور بالعزاء عن الشقاء الدنيوى أمـلاً فـى السـعادة الأخروية ، كما يقدم للفقراء أنسـاقاً قيميـة وأنماطـًا سلوكية ، تهدف الى المحافظة على الوضـع الـراهن ، وتحول دون ظهور أية مبادرات من جـانبهم للاحتجـاج أو التمرد أو الثورة . التدين هنا يعقم قـوى الاحتجـاج والثورة ، أو يجهضها ويحول دون تطورها ونضجها إن

وجدت . وفى هذا المعنى بالذات يمكن أن تصدق المقولة الماركسية بشأن الدين كـــأفيون للشـــعب وكجملـــة مـــن المنظومات العقائدية والقيمية والتعبدية ، والتى تحول دون قيام صراع اجتماعى بناء فضلاً عن وعد قوى التجديـــد والتغيير .

وتنهض المؤسسات الدينية الرســـمية بـــدور بـــالغ الأهمية فى هذا المجال ، يستند إلـــى ســـلطتها الدينيـــة واحتكارها للنص الدينى الرسمى ، واحتكار تأويله أيضًا ، وذلك لإجهاض أية محاولة للتغييـــر ولتجـــاوز الوضـــع الراهن ، من خلال الترويج للقيم وأنماط الســـلوك التـــى تحقق وتدعم المصالحة بين الجماهير الفقيرة وواقعهـــا ، الذي يتسم بالظلم وغياب العدل وفقدان الحرية ، كما تشيع بينها انساقاً من المعاني القادرة علـــى تأويـــل التفـــاوت والتمايز الاقتصادي الاجتماعى وقبوله ، وعلى الحد مـــن الرغبات المادية والاجتماعية للفقراء ، بما يحقق تكاملهم وإدماجهم في البناء الاجتماعى ، والتكيف مع ما هو قائم ، وفي إقناعهم بقبول حظوظهم الدنيوية كما هى ؛ لأنهـــا قدر الله ومشيئته ، وأن عليهم واجب القناعـــة والرضـــا بالمقسوم والاستكانة والخضوع ، ولأن المؤمن صـــحيح الإيمان يكون فاضلا بقدر مـــا يطيـــع ويصـــبر علـــى المكروه ، ويستسلم لمشيئة غيره ، إلهًا كان أو انبيـــاء أو أولياء أو حكامًا أو آباء . وهذا ، في تقـــديري ، يرســـخ ثقافة الصمت والطاعة والامتثال والخضوع ، التي تسلب البشر قدراتهم على الإبداع والمبـــادرة أو تعطـــل هـــذه

القدرات حال وجودها واستنفارها من أجل تجـدد حيـاة البشر وإسعادهم .

يبقى أن أشير في هذه الخاتمة إلى أنني كنت وعلى امتداد سنوات العمر المنقضية أتصور أن أحياء الفقـراء على الامتداد الرحب للوطن ، هى الرماد الـذى يختفـى تحته جمر النار ، الذى سيشعل نيران الثورة الاجتماعيـة فى مصر ، والتى ستقيم ميزان العدل وتحرر الـوطن . بكامله ولكن ما يبدو أننى كنت واهمًا بل مغرقـًا فـى الخيال إذ تصورت أن المطروح في المستقبل المنظور ، وفى ظل تفاقم الأزمة المجتمعية ، أن تكـف الجمـاهير الفقيرة الخاملة عن خضوعها المعتاد ، وتنسـحب مـن تعاونها بل وتواطئها المخزى ، مع الآليات الجارية فـي المجتمع ، والتى تكرس في النهايـة إفقارهـا وظلمهـا وقهرها ، ومن ثم يمكن أن تقدم علـى إحـداث كسـور وتفكيكات هيكلية تتجاوز بها وضعية العجز والخضـوع والاستسلام . وبمعنى آخر تقدم على ثورة شعبية ، تدفن بها بقايا الطغيان الفرعونى ، الذى يستميت فى الدفاع من أجل استمراريته ، فى زمن يوجـب بالفعـل ضـرورة القطيعة مع هذه الاستمرارية ، التى فقـدت تمامًـا كـل مبررات وجودها ومشروعيتها ، على حد تعبير الراحـل جمال حمدان .

وبعبارة أكثر وضوحًا كان السؤال الـذي يطـرح وبالحاح : هل من الممكن فـي المسـتقبل المنظـور أن يتحول فقراء المصريين ، وهم أغلبية ، وبشكل مباشـر

إلى تحدى قوة الطغيان الفرعونى ، وآلته القمعية ، الــذى استباحهم ويعتبرونه بكل صراحة ووضوح مسئولاً عمــا آلت اليه أحوالهم ؟! وأنا هنا لا أزايــد علــى الفقــراء والغلابة من أهل مصر ولا أطلــب مــنهم أن يعرضــوا أنفسهم لآليات القمع الوحشية للنظام ، بكل ممارســاتها ، والتى تصل الى السفالة والبلطجة وانتهــاك العــرض ، ولكننى أطرح هذا التساؤل في ظل فقدان هذه الجمــاهير لأية قدرات تنظيمية ، بمعنى انتظامهــا هــي أو حتــى طلائعها ، في هيئات وتنظيمات سياسية مهيكلة وحقيقية ، وذات قواعد اجتماعية حقيقية ، قادرة على إيقاظ وعــى المصريين ، وإثارة غضبهم واستثماره ، عبر تنظيمــات يمكن أن تتولى مهام تعبئة الجماهيروحشــدها ، وتكتيــل إرادتها وتنظيمها وتحريكها ، في مشهد صراعي لإحداث التغيير الذي يحقق آمال الأمة في العدل والحرية. ولكــن يبدو أن الرهان المستقبلي على هــذه الجمــاهيير كــان رهانــًا خاسرًا . فالقضية في تقديري أيضًا ليست رهينة بتوافر الوعي والإدراك والفهم فحسب ، أو رهينة بمسألة التنظيم وحده . فبدون توافر الشرطين معًــا لــن تكــون تحركات الفقراء سوى هبات جماهيرية لا تزيد عن كونها أحداث شغب كما تصفها أجهزة الإعلام الرسمي دومًــا ، وتحدث نتيجة للاستفزاز المباشر ، الذي تحدثه سياســات وتوجهات النظام الاقتصادية . فوران وعفوية ماتلبث إن تهدأ وتنطفئ . إن هذه الهبات إنما تعبر بالفعل عن وعى متدن لا يؤدى بحال إلى تغيير جذرى ، ولكن يبــدو أن

التاريخ الطويل من القمع والقهر للنظم الشمولية على أرض مصر ، والتي استعبدت المصريين ، قد جعلتهم وكانهم قد جبلوا على الأبعاد عن النهوض الحر بمسئولياتهم ، حتى تجاه صنع حياتهم وتجديدها ، و كأن روح الأمة بكاملها ــ وليس فقراؤها فحسب ــ قد صارت بكاملها في قبضة الطغيان الذى يقودها إلى مهاوي اليأس والفساد والتدهور الحضاري . وأنا هنا أعود لأذكر بأننى لا أدعو الناس لليأس والاستسلام وقبول الأمر الواقع ؛ ذلك لأن الرهان على دوام هذه الأحوال باطل تمامًا ولإنه على الضد من طبائع الأمور ونواميس الكون ، ولا يتفق بحال مع حركة التاريخ . ولا يتأتى هذا البطلان من تصور أن المصريين الفقراء ستنفجر ثورتهم قريبًا بحكم فرط إفقارهم وانسحاقهم ، و إنهاكهم إلى حد إصابتهم بالعمى والخرس والعجز ــ وإنما يتأتى بطلان الرهان على دوام الحال بفعل الزمن وحركة التاريخ ، الذي لا يرحم أحدًا . إن رياح التغيير والثورة في مصر قد تأتي من حيث لا يتوقع النظام الحاكم ، وفكرة الانقلاب أو الثورة قد تتم أمام أعين حراس النظام ، وعلى الرغم من آلاته القمعية الجبارة ، التي جعلت الخوف يسكن قلوب كل المصريين وعقولهم ، بفعل ما يرونه من ضرب وسحل وقمع ، وانتهاك ، بل وقتل في بعض الأحيان ، كل ذلك جعل الكثرة من المصريين تكفر بالفعل بفكرة الخروج على النظام وكسر حلقة الطغيان التي أحكمت إسارها حول عقولهم وقلوبهم ونفوسهم.

الفصل السادس

الإشارات والمصادر



(*) تكشف مراجعة القائمة الببليوجرافية المشروحة للإنتاج العربي في علم الاجتماع خلال الفترة الممتدة من عام ١٩٢٤ إلى عام ٢٠٠٠ أي على امتداد مايزيد قليلا عن ثلاثة أرباع القرن ، عن مفارقة مهمة فيما يتعلق ببحوث علم الاجتماع الديني .

فعند مقارنة المنتج العلمي في مجال علم الاجتماع الديني بغيره في المجالات الأخرى في علم الاجتماع مجتمعة تبين أنه خلال الفترة من عام ١٩٢٤ إلى عام ١٩٩٥ كان المنتج العلمي في مجال الاجتماع الديني .

يمثل ما نسبته ٢,٩% من إجمالي المنتج العلمي الاجتماعي في المجالات الأخرى لعلم الاجتماع أما خلال الفترة من عام ١٩٩٥ إلى عام ٢٠٠٠ ، وعلى الرغم من قصر الفترة الزمنية الأخيرة لدى مقارنتها بسابقتها ، فإن المنتج العلمي في مجال علم الاجتماع الديني يمثل مانسبته ٤،١٨% من مجموع المنتج العلمي في المجالات الأخرى لعلم الاجتماع ، هذا مع ملاحظة أن المنتج العلمي في سوسيولوجيا الدين والوارد في القائمة الببليوجرافية لايمكن بحال إدراجه في مجمله أو على وجه الدقة في مجال سوسيولوجيا الدين بالمعنى الأكاديمي المتعارف عليه .



المراجع

(١) راجع :

- محمد الجوهرى وأحمد زايد (أشراف) ، الإنتاج العربى فى علم الاجتماع. قائمة ببليوجرافية مشروحة ، المجلد الأول ١٩٢٤ _ ١٩٩٥ مركز البحوث والدراسات الاجتماعية ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، القاهرة ، ٢٠٠١ ص ص ٣٣٦-٣٤٦ .
- محمد الجوهرى وأحمد زايد (إشراف) ، الإنتاج العربى فى علم الاجتماع . قائمة ببليوجرافية مشروحة ، المجلد الثانى ١٩٩٥- ٢٠٠٠ ، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية ، كليه الآداب ، جامعة القاهرة ، القاهرة ، ٢٠٠٣ ص ص ٤١٨-٤٢٩ .

(**) محمد الجوهرى ، وأحمد زايد (إشراف) ، الانتاج العربى فى علم الاجتماع . قائمه ببليولوجرافية مشروحة ، المجلد الأول ١٩٢٤-١٩٩٥ والمجلد الثانى ٩٩٥ - ٢٠٠٠ مصدر سابق ، ويلاحظ أنه فيما يتعلق بالبحوث التى أجريت حول التدين الشعبى أنه خلال الفتره بين ١٩٢٤ – ١٩٩٥ كان هناك سته أعمال فقط تناولت موضوعات ذات صلة بالتدين الشعبى ، من حيث بنيته الذهنية واطره التنظمية ، وهى تمثل ٧,٦% من مجموع المنتج العلمى فى مجال سوسيولوجيا الدين الوارد فى القائمة . أما خلال الفترة من عام ١٩٩٥- إلى عام ٢٠٠٠ فهناك أربعة أعمال فقط فى التدين الشعبى وتمثل ٤,٧٦% من مجمل المنتج العلمي في مجال سوسيولوجيا الدين خلال تلك الفترة. من بين البحوث المهمة ، حصرًا ، فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا والتى تناولت بالتحليل الأطر التنظيمية للتدين الشعبى ، وبالتحديد الطرق الصوفية

، وبعض عناصر ومكونات البنية الذهنية للتدين الشعبى ، انظـــر :
— حسن محمد سيد أحمد الشرقاوي ، الطرق الصوفية ومراســمها في محافظات الوجه البحري ، رسالة دكتوراة ، كلية الأداب جامعة الإسكندرية ، ١٩٧٣ .

- فاروق أحمد مصطفى ، البناء الاجتماعي للطريقة الشـــاذلية في مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الإســكندرية ، ١٩٨٠.
- ———————— ، الطرق الصوفية والضبط الاجتماعي ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٨٦ .
- شحاتة صيام ، الدين الشعبي في مصر . نقد العقل المتحايل
- (د . م : د . ن) ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٤ .
- عامر النجار ، الطرق الصوفية في مصر : نشأتها ونظمهـــا وروادها ، دار المعارف ، القـــاهرة ، الطبعـــة السادســـة ، ١٩٩٥ .
- محمد عبد السلام أبو زيد ، التحليل السوسيولوجي لمفهـــوم الحلال والحرام عند بعض الشرائح الاجتماعية في المجتمع المصري ، رسالة ماجيستير ، كلية الآداب جامعة القاهرة ، ١٩٩٧ .
- أحمد أبو زيد ، الحياة الدينية في : محمـــد الســـيد الســـعيد (المحرر) ، حكمة المصريين ٠مركـــز القـــاهرة لدراســـات حقوق الانسان ، القاهرة ، ١٩٩٩ ص ص ٩١ — ١١٢.

(٢) محافظه الفيوم مركز المعلوما ت ودعم اتخاذ القـــرار بيـــان الخدمات الأساسية ، ديسمبر ١٩٩٣ .

(٣) – الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء ، التعداد العـــام للسكان والإســـكان والمنشـــآت ١٩٩٦ ، النتـــائج النهائيـــة خصائص السكان إجمالى الجمهورية القاهرة ١٩٩٨ .

(٤)البرنامج الإنمائى للإمم المتحدة ومعهد التخطيط ، تقرير التنمية البشرية ، مطابع الأهرام التجارية ، مصر ، ٢٠٠٣. انظر أيضًا :

- http://www.fayoum.8k.com/faycity-htm.2001/
- محافظه الفيوم بيان الخدمات الأساسية مصدر سابق .
- علياء شكرى وسعاد عثمان وآمال عبد الحميد ، الحياة اليومية لفقراء المدينة دراسات اجتماعية واقعية دار المعرفة الجامعية ، الطبعة الأولى الاسكندرية ١٩٩٥ .
- ممدوح الولى ، سكان العشش والعشوائيات . الخريطة الإسكانية للمحافظات ، نقابة المهندسين القاهرة ١٩٩٣ .

(*)تجدر الاشارة هنا إلى أن الخبرات الشخصية للباحث وسيرته الذاتية تشكلان معا مادةلبيانات ثرية يمكن التعويل عليها فى البحث ، اذا كانت هذه الخبرات و تلك السيرة ذات صلة مباشرة بموضوع البحث ، وعلى أن يتم إدماجها فى سياق البحث بطريقة مفيدة ، وبحيث يمكن تناول العلاقة بين الخبرة الشخصية للباحث وقضايا بحثه دون تقويض للدقة المنهجية ، ذلك لأن الباحث بكل تاريخه وتكوينه ، وبحثه مترابطان معًا بدرجة لايمكن الفكاك منها بحال ، باسم مزاعم الحياد والموضوعية .

(٥) انظر بشأن هذا التحديد لمفهوم التدين إجمالا وبكل تنوعاته وتبايناته :

- عبد الباسط عبد المعطي ، الوعي الديني في الحياة اليومية في القرية . دراسة ميدانية على عينة من شرائح طبقية في قرى مصرية . ندوة الدين في المجتمع العربي ، القاهرة ٤– ٧ إبريل ١٩٨٩ . ص٣ .
- عصام فوزي ، آليات الهيمنة والمقاومة في الخطاب الشعبي ، في : قضايا المجتمع المدني العربي في ضوء أطروحات جرامشى . مركز البحوث العربية والجمعية العربية لعلم

الاجتماع ، مؤسسة عيبال للدراسات والنشر مركز البحوث العربية ، دمشق والقاهرة ، ١٩٩٢. ص ص ١٢٢-١٣٥ .

- محمود أمين العالم ، الدين والسياسة في : الإسلام السياسي ، الاسس الفكرية والأهداف العملية . سلسلة كتاب قضايا فكرية ، الكتاب الثامن ، أكتوبر ١٩٨٩ . ص٥ .

(٦) بخصوص التمييز بين أنماط التدين الإسلامى الشائعة فى المجتمع المصرى يمكن الرجوع إلى :

- أحمد زايد ، الإسلام وتناقضات الحداثة ، المجلة الاجتماعية القومية ، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ، المجلد ٣١ ، العدد الأول يناير ١٩٩٤ . ص ص ٤١-٧٣ .
- – عصام فوزي ، أنماط التدين في مصر ، مدخل لفهم التفكير الشعبي حول الدين ، في : إشكاليات التكوين الاجتماعي والفكريات الشعبية في مصر ، بحوث مناقشات الندوة المهداة إلى أحمد صادق سعد ، ٣-٥ مايو ١٩٩٠ ، مؤسسة عيبال للدراسات والنشر ، قبرص ، الطبعة الاولى ١٩٩٢ . ص٢١٩

(٧) انظر التحليل الذى قدمه حليم بركات للدين الرسمى المؤسسى فى المجتمعات العربية ومن بينها مصر فى العمل الموسوعى:

- حليم بركات ، المجتمع العربي في القرن العشرين ، بحث في تغير الأحوال والعلاقات ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، الطبعة الاولى ، ٢٠٠٠ . ص ص ٤٤٧-٤٤٩.
- محمد سعيد طالب ، الدولة والدين ، الاهالي للطباعة والنشر والتوزيع دمشق ، الطبعة الاولى ، ١٩٩٧
- Pieter Hendrik Vrijhof and Jacques Waardenburg ,Official and Popular Religi0n . Analysis of a

theme for Religious Studies ، Moutan Publishers ، The Hague Paris ، New York pp. 352-353

(٨) سبق أن قدم الباحث تحليلا سوسيولوجيا للحركات السياسية الإسلامية فى المجتمع المصرى على صعيدى الفكر والممارسة خلال الفترة من مطلع السبعينيات وحتى منتصف التسعينيات من القرن العشرين راجع:

- عبد الله شلبي ، الدين والصراع الاجتماعي في مصر (١٩٧٠- ١٩٨٥) سلسلة كتاب الأهالي رقم ٦٧ ، حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي ، القاهرة ، ٢٠٠١ .
- ـــــــــــــ ، عنف المقهور . جدلية القهر والعنف السياسى الديني في المجتمع المصري خلال العقد التاسع من القرن العشرين ، رامتان للنشر والتوزيع ، الإسكندرية ، ٢٠٠١ . وانظر أيضًا :
- نبيل شرف الدين ، أمراء ومواطنون ، رصد لظاهرة الإسلام الحركي في مصر خلال عقد التسعينيات ، مكتبة مدبولي ، القاهرة الطبعة الاولى ، ١٩٩٨ .

The Ideologization of Islam in ، - Ali Morad in A.S. Cudsi and ، the Contemporary Muslim warld CRoom ، Islan and Powr ، Ali E.H.D essouhi (ed) London 1981.pp-47-67 . ، Helm

(٩) راجع :

- حليم بركات ، المجتمع العربي المعاصر ، مصدر سابق ، ص ص ٤٤٩-٤٥٠ .
- عصام فوزى أنماط التدين فى مصدر سابق ، ٢٢٦-٢٣١ .
- Pieter Hemdrik Vrijhof and Jacques Official and Popular Relioion Op . ، Waardenburg PP . 342-344 ، Cit .

(١٠) بخصوص تجانس ووحدة التدين الشعبى المصرى فى ماهيته وعلى صعيد الممارسة انظر:

- حسن حنفي ، الدين والثقافة السياسية في الوطن العربـــي ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٩٨. ص ص ٧٨-٧٩ .

(١١) راجع :

- حليم بركات ، المجتمع العربى المعاصر ، مصدر ســابق ، ص ص ٤٤٩-٤٥٢ .
- عصام فوزى انماط التدين فى مصر مصدر سابق ص ص ٢٣٠- ٢٤٢ .

(١٢) : من الاعمال الرائدة التى رصدت هذا الاســتخدام للتــدين الشعبى فى المجتمع المصرى :

- محمد الجوهرى ، علم الفولكور الجــزء الثــانى : دراســة المعتقدات الشعبية ، دار المعــارف القــاهرة ١٩٨٠ ، ص ص ٨١ – ٩٣ .
- سيد عويس ، من ملامح المجتمــع المصـــرى المعاصـــر : ظاهرة إرسال الرسائل إلى ضريح الإمام الشافعى ، المركز القومى للبحوث الاجتماعة والجنائية ، القاهرة ١٩٦٥ .
- حليم بركات ، المجتمع المعاصر ، مصدر سابق ، ص ص ٤٥٣ – ٤٥٩ .

(١٣) راجع بخصوص الدور التاريخى للطرق الصوفية الإسلامية عبر التاريخ الوسيط والحديث والمعاصر:

- Pieter Hendrik Vrijhof And Jacques Waardenburg Official And Popular Religion Op cit p p 349 – 352 .
- عصام فوزى أنماط التدين فى مصر ، مصدر ســابق ، ص ص ٢٢٩ – ٢٣٠ .

- أحمد صادق سعد ، تاريخ مصر الاقتصادى الاجتماعى ، دار ابن خلدون بيروت ١٩٧٩ ، ص ص ٣٠٤- ٣١٣ .
- عامر النجار ، الطرق الصوفية فى مصر نشأتها ونظمها وروادها ، مصدر سابق .

(١٤) حول تأويل وجود واستمرارية وفعالية التدين الإسلامى الشعبى فى مصر والعالم الاسلامى يمكن الرجوع إلى :
- مهدى عامل ، أزمة الحضارة العربية ام ازمة البورجوازيات العربية ، دار الفارابى ، بيروت ١٩٧٤ ص ص ١٨٧ – ١٩٣
- سمير امين ، أزمة المجتمع العربى ، دار المستقبل العربى ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٥ ص ص ١٢٥ – ١٣١ .

(١٥) راجع بشأن مفهوم الفقر النسبى والمطلق وكيفية قياسه والملامح الرئيسية لتوزيع الفقر فى حضر مصر وآليات إنتاج الفقر وإعادة إنتاجه يمكن الرجوع الى :
- عبد الباسط عبد المعطى ، توزيع الفقر فى القرية المصرية ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص ص٥٠-٤٠
- جاك لوب ، العالم الثالث تحديات البقاء ، ترجمة : أحمد فؤاد بليغ ، عالم المعرفة ، العدد ١٠٤ ، الكويت ١٩٨٦ ، ص ص ٢٠٤-٢٣٣ .
- الن ب.درننج ، الفقر والبيئة : الحد من دوامة الفقر ، ترجمة : محمد صابر ، الدار الدولية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، الطبعه الاولى ١٩٩١ ، ص ١٠ .

(١٦) انظر بشأن التحديد الإجرائى للفقر وحصر مؤشراته الواقعية:
- عادل الجيار ، أساسيات توزيع الدخل فى مصر ، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام ، العدد ٥٥ ، الأهرام ، القاهرة ، ١٩٨٣

- كريمة كريم ، الفقر وتوزيع الدخل فى مصر ، منتدى العالم الثالث ، مكتب الشرق الأوسط ، القاهرة ، يونيــه ١٩٩٤ ، ص ص ١٧- ٢٦ .
- هبة الليثى ، مسألة توزيع الدخل فى مصر وخصائص الفقر فى مصر ، بحث مقدم إلى ندوة القمة الاجتماعية ، الأبعــاد الدولية والأقليمية والمحلية ، مركز بحوث ودراسات الــدول النامية بالتعاون مع اللجنة القومية المصرية للمنظمات غيــر الحكومية ، ١٠ أبريل ١٩٩٥ ، كليــة الإقتصــاد والعلــوم السياسية ، جامعه القاهرة ، ١٩٩٥ ، ص ص ٣-٥

(١٧) راجع :

- البنك الدولى للإنشاء والتعمير / البنــك الــدولى مؤشــرات التنميه فى العالم ١٩٩٩ مصدر سابق .
- كريمة كريم ، الفقر وتوزيع الدخل فى مصر ص ص ١٧-١٨ ، ص ص ٢٥-٢٦ .

(١٨) راجع بشان الأزمه وأبعادها وتطورها :

- فاروق عبد الحليم شنوبر و على عبــد العزيــز ســليمان ، ملاحظات حول الآثــار الاجتماعيــه لبرنــامج الإصـــلاح الاقتصادى فى مصر ، موتمر الإصلاح الاقتصادى وآثــاره التوزيعيه ٢١-٢٣ نوفمبر ١٩٩٢ كلية الاقتصــاد والعلــوم السياسيه جامعة القاهرة ١٩٩٢ .
- جلال عبد الله معوض ، الإصلاح الاقتصادى فى مصــر ، الآثار الاجتماعيه والسياسية ندوه شــركاء التنميــة مركــز بحوث ودراسات الدول الناميــة كليــة الاقتصــاد والعلــوم السياسيه جامعه القاهرة ٢٦ يونية ١٩٩٥ .

(١٩) راجع :

Maustafha k. Alsayyid And Alia Almahdy Stractural Adjustment And The Fight Agoinmt parerty The Egyption Case Apaper presented Luy

The Center Of Denveloping cauntrirs Studirs of Cairo University to The NGO.S Fowrm Of the U.N Canfermce An Soila Development 1995 Pd 3-4

(٢٠) راجع :

- سهير لطفى ,عثمان محمد عثمان ، عبد الباسط عبد المعطى (إشراف) ، عبد الباسط عبد المعطــى ، محمــود الكــردى (تحرير) ، الأسرة المعيشية والإنفاق الاجتمــاعى ، الواقــع والتطلعات ، دراسة مسحوبة بالعينــة ، المركــز القــومى للبحوث الاجتماعيه والجنائيــة ومعهــد التخطــيط القــومى وبرنامج الأمم المتحده الإنمائى ، القاهرة ٢٠٠٠ .
- الأهرام : عــرض المؤشــرات بحــث الــدخل والانفــاق والاستهلاك للأســرة المصــريه ٩٥/١٩٩٦ ، ١٥ يوليــو ١٩٩٧ ص ١٥ .

(٢١) الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء ، التعــداد العــام للسكان والإسكان ١٩٩٩ ، النتائج النهائية خصائص السكان ، إجمالى الجمهورية ، مصدر سابق .

(٢٢) راجع :

- – سهير لطفى ، عثمان محمد عثمان ، عبد الباســط عبــد المعطى (إشراف) عبد الباسط عبد المعطى ، محمود الكردى (تحرير) ، الأسرة المعيشية والإنفــاق الاجتمــاعى الواقــع والتطلعات ، مصدر سابق .

(٢٣) راجع :

- الزواوى بغوره ، مفهوم الخطاب فى فلسفة ميشيل فوكــو ، المجلس الأعلى للثقافة ، القــاهرة ، ٢٠٠٠ ص ص ٨٧ – ٩٥
- محمد حافظ دياب ، سيد قطب : الخطاب والأيدولوجيا ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة الطبعة الاولى ١٩٨٧ .

- ميشيل تومبسون وآخرون ، نظرية الثقافة . عالم المعرفة ، العدد ٢٢٣ ، الكويت ، ص ص ٣١ – ٣٥
- أحمد أبو زيد ، رؤية العالم : دليل العمل الميداني ، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية القاهرة ١٩٩٣ ص ٦.
- أحمد زايد ، خطاب الحياة اليومية في المجتمع المصري ، دار القراءة للجميع للنشر والتوزيع ، دبي ١٩٩٢ .

(٢٤) راجع :

- محمود عودة ، التكيف والمقاومة : الجذور الاجتماعية والسياسية للشخصية المصرية ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ١٩٩٥ .

(٢٥) سمير فياض ، الأستمرارية والإنقطاع : رؤية جمال حمدان عن الاصالة والمعاصرة ، منتدى ابن رشد القاهرة ، ٢٠٠٤ .

(٢٦) عادل حموده ، النكتة السياسية ، كيف يسخر المصريون من حكامهم ؟ الفرسان للنشر ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، يناير ٢٠٠٣ .